جهود العلماء في خدمة المصطلح القرآني
المسار والمصير

الدكتورة فريدة زمرد
دار الحديث الحسنية الرباط

مقدمة
1. أوجه عناية العلماء بالمصطلح القرآني: الجانب النظري
1.1. تأصيل مفهوم المصطلح القرآني
1.1.1. في مجال اللغة
2.1.1. في مجال أصول الفقه

2. أوجه عناية العلماء بالمصطلح القرآني: الجانب التطبيقي
1.2. في كتب الغريب ومعاجم الألفاظ القرآنية
2.2 . في كتب الوجوه والنظائر
3.2. في كتب التفسير

3. جهود معاصرة لخدمة المصطلح القرآني
1.3. الدراسات والأبحاث
2.3. المشاريع العلمية
3.3. المراكز والمؤسسات العلمية
خاتمة: آفاق خدمة المصطلح القرآني

مقدمة

لم تعد مسألة إطلاق صفة المصطلحية على الألفاظ القرآنية، مثيرة للجدل العلمي الذي صاحب هذا الإطلاق في بداياته، بعد أن تبين، بما لا يدع مجالا للشك، أن لا حرج في تسمية بعض ألفاظ القرآن الكريم مصطلحات، ما دام التواضع الذي ينبني عليه مفهوم الاصطلاح، ممكن الوقوع من طرف واحد هو الواضع

الأول لذلك الاصطلاح، ويكون معيار الاصطلاحية، حينئذ، الاطراد في الاستعمال، كما لم يعد غياب استعمال القدماء لمصطلح: "المصطلحات القرآنية" مبررا لرفض هذه الصفة، إذ العبرة بالمفهوم وهو حاضر بقوة لدى القدماء، وفي هذا البحث ما يجلي بعض صوره.

وفي البداية يجب الإقرار بصعوبة الإحاطة بأوجه عناية **العلماء** - بهذا الإطلاق - بالمصطلح القرآني، وذلك لسببين:

الأول: اتساع مساحة العلوم التي اعتنت بالقرآن الكريم من جهة ألفاظه ومصطلحاته، فقد احتيج إلى ضبط مصطلحات قرآنية كثيرة أصبحت لها امتدادات مفهومية في عدد من العلوم، وهي إجمالا العلوم والمعارف الخادمة للوحي كالتفسير وعلوم القرآن وأصول الفقه واللغة وعلم الكلام، وتلك التي لم تنج من تأثيره بشكل أو بآخر كباقي العلوم المصنفة ضمن خانة "العلوم الإنسانية والدقيقة".

الثاني: كثرة أوجه الاهتمام بهذا المصطلح وتنوعها في تلك المجالات: بين ما هو نظري وما هو تطبيقي، مع تعدد زوايا النظر واختلافها.

لذلك سيحاول البحث الوقوف عند **بعض** مظاهر العناية بهذا المصطلح، مما له تعلق، نظريا، **بتأصيل مفهومه**، وتطبيقيا، بدراسته من جوانب تتعلق أساسا بخصائص "**المصطلحية**" فيه: **كتعريفه وبيان الفروق والعلائق بين المصطلحات، وبيان الأصول الدلالية لها، ووضع القواعد الكلية لاستعمال القرآن لها، وتصحيح الفهوم الخاطئة لها**، وذلك في مجالات علمية بعينها هي الأقرب إلى مجال القرآن الكريم: في اللغة وأصول الفقه على المستوى النظري، وفي الغريب ومعاجم الألفاظ القرآنية والوجوه والنظائر والتفسير على المستوى التطبيقي.

1. عناية العلماء بالمصطلح القرآني: التأصيل النظري

1.1. تأصيل مفهوم المصطلح القرآني

من أبرز المجالات التي أصل فيها مفهوم المصطلح القرآني مجالان: فقه اللغة وأصول الفقه. أما فقه اللغة فلأنه المجال الذي يدرس ـــ فيما يدرس ـــ القضايا النظرية المرتبطة باللغة وفي مقدمتها تاريخ اللغات: مبدؤها وتطورها، وهنا يكمن مفهوم المصطلح لأنه وجه من أوجه التطور الدلالي للغة، وليس الأمر هنا بمنأى عن المصطلح القرآني، لأنه بالعلم بفقه اللغة، أو "أصولها" بتعبير ابن فارس، إلى جانب العلم بفروعها «يُعلم خطابُ القرآن والسُّنة». وأما أصول الفقه، فلأنه العلم المؤسس لمنهج التعامل مع نصوص الوحي وألفاظه، ولذلك كانت للأصوليين عناية خاصة بالألفاظ والدلالات، جعلوا المدخل إليها: باب اللغات وأقسام الحقائق، وضمنها درسوا الألفاظ الشرعية والأسماء الدينية وبحثوا العلاقة بين الأصل اللغوي والاستعمال الشرعي أو الاصطلاحي لها وكل ذلك يدخل في صلب موضوع المصطلح القرآني.

1.1.1. في مجال اللغة:

من القضايا التي اهتم بها المؤلفون في فقه اللغة، أكثر من غيرهم، قضية مبدأ اللغات، ورغم أن هذه المسألة عُدت من فضول العلم، أو من مشكِله لارتباطها **بالمبدأ** الذي يصعب معرفة كنهه في غياب ما يعين على ذلك من وسائل، وأيضا لارتباطها ـــ في التراث الإسلامي ـــ بجدل كلامي وفلسفي عديم الجدوى؛ فإن كلام العلماء عن مبدأ اللغات هو كلام عن تاريخها، والتاريخ يعني التطور والصيرورة، ومن أهم مظاهر التطور في اللغات: التطور الدلالي الذي تخضع له الألفاظ احتكاما لهذه السنة. **ومن أكبر تجليات هذا التطور ما أحدثه القرآن الكريم في لغة العرب من تغيير.**

وقد لخص ابن فارس في كتابه "**الصاحبي في فقه اللغة**" في باب سماه "**الأسماء الإسلامية**" وضعية اللغة العربية بعد نزول القرآن وقرن ما أحدثه الإسلام من تغيير في حياة الناس بما أحدثه القرآن في لغتهم فقال: «كَانَتْ العربُ فِي جاهليتها عَلَى إرثٍ من إرث آبائهم فِي لُغاهم وآدابهم ونسائكهم وقَرابينهم، فلما جاءَ اللهُ جلّ ثناؤه بالإسلام **حالت أحوالٌ**، ونُسِخَت دِيانات، وأبطلت أمورٌ، **ونُقِلت من اللغة ألفاظ من مواضعَ إِلَى مواضع أخَر بزيادات زيدت، وشرائع شُرعت، وشرائط شُرطت**»[1] ثم ذكر أمثلة مما تغير في اللغة بناء على التصور والرؤية التي جاء بها القرآن الكريم في مجال العقيدة والتشريع مما لم يكن للعرب به معرفة من قبل: «فكان مما جاء فِي الإسلام - ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق (...) وكذلك كَانَتْ لا تعرف من الكُفر إلاَّ الغِطاء والسِّتْر. فأما المنافق فاسمٌ جاء بهِ الإسلام لقوم أَبْطنوا غير مَا أظهروه، (...) وَلَمْ يعرفوا فِي الفِسْق إلاَّ قولهم: "فَسَقَتِ الرُّطبة" إذَا خرجت من قِشرها، وجاء الشرع بأن الفِسق الإفحاش فِي الخروج عن طاعة الله جلّ ثناؤه. ومما جاء فِي الشرع الصلاة (...) وكذلك الصيام (...) وكذلك الحَجُّ، (...) وكذلك الزّكاة، (...) وَعَلَى هَذَا سائر مَا تركنا ذِكرَه من العُمْرة والجهاد وسائر أبواب الفِقه»[2]؛ ثم بين أن التعامل مع هذه المصطلحات القرآنية يقاس على تعاملنا مع مصطلحات سائر العلوم: «فالوجه فِي هَذَا إذَا سُئل الإنسان عنه أن يقول: فِي الصلاة اسمان لُغويٌّ وشرعيٌّ، ويذكر مَا كانت العرب تعرفه، ثُمَّ مَا جاءَ الإسلام بهِ. وهو قياسُ مَا تركنا ذكرَه من **سائر العلوم**، كالنحو والعَروض والشِّعر: كل ذَلِكَ لَهُ اسمان لغوي **وصِناعي**»[3].

ونص ابن فارس هذا مهم في تأصيل مفهوم المصطلح القرآني، وبيان ما أحدثه القرآن الكريم من طفرة دلالية في لغة العرب، ويمكننا انطلاقا منه أن نحدد المقصود بالمصطلح القرآني بأنه كل **لفظ دل على مفهوم قرآني خاص لم يكن متداولا عند العرب قبل نزول القرآن الكريم**، أو بمعنى أدق: كل لفظ أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة غير التي له في اللغة العربية، **مع بقاء أصل الدلالة اللغوية فيه.**

---

[1] الصاحبي في فقه اللغة، ص: 17 .

[2] الصاحبي: 44.

[3] نفسه: 45.

2.1.1. في مجال أصول الفقه

يتجلى التأصيل الأصولي للمصطلح القرآني بوضوح في مبحث "الألفاظ الشرعية" وهي الألفاظ التي خصها الشارع بمعان "إسلامية" أو "دينية" لم يكن للناس بها عهد قبل نزول القرآن الكريم، ومفهوم اللفظ الشرعي وإن كان يعم ما جاء في القرآن والسنة معا، فهو يعتبر المنطلق الأساس للقول باصطلاحية ألفاظ القرآن الكريم، وبغض النظر عن الجدل والنقاش الحاصل في بعض القضايا المرتبطة بهذا المبحث فإن أقوال الأصوليين فيه تعد خطوة مهمة في باب التأصيل للمصطلح القرآني، لإجماعها على أن الشارع أضاف إلى معاني بعض الألفاظ معاني لم تكن لها قبل، وإن اختلفت في نوع تلك الإضافة ومقدارها. ولعل أهم ما يستفاد من جهود الأصوليين في دراستهم للألفاظ الشرعية الإقرار **بإمكانية وجود اصطلاح أو دلالة شرعية خاصة، دون حاجة إلى التواضع**، الذي يسبب حرجا في مسألة المصطلح القرآني، فقد أشار الزركشي في البحر المحيط إلى أن الألفاظ الشرعية والعرفية، إنما صارت كذلك **بكثرة الاستعمال لا بالتواضع السابق**: «وَكَذَلِكَ الْعُرْفُ, فَإِنَّ أَهْلَهُ لَمْ يَضَعُوا لَفْظَ الْقَارُورَةِ مَثَلًا لِلظَّرْفِ مِنْ الزُّجَاجِ عَلَى جِهَةِ الِاصْطِلَاحِ, كَمَا أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَضَعْ لَفْظَ الزَّكَاةِ لِقَطْعِ طَائِفَةٍ مِنْ الْمَالِ لِلْفُقَرَاءِ، بَلْ **صَارَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ شَرْعِيَّةً وَعُرْفِيَّةً بِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ دُونَ أَنْ يَسْبِقَهُ تَعْرِيفٌ بِتَوَاضُعِ الِاسْمِ**»[1]، ثم أكد بعد ذلك: «إنَّ الْعُرْفَ بِغَلَبَةِ الِاسْتِعْمَالِ يَقُومُ مَقَامَ ابْتِدَاءِ الْمُوَاضَعَةِ»[2].

إن اعتبار كثرة الاستعمال معيارا لصفة المصطلحية من أهم الإشارات الدالة على عمق النظر إلى المصطلح القرآني، ويمكننا انطلاقا من ذلك اعتبار المصطلح القرآني: **هو كل لفظ استعمل في القرآن الكريم بدلالة معينة تطرد كليا أو جزئيا في كل موارده...**

إلا أن تأصيل الدرس الأصولي لمفهوم المصطلح القرآني من خلال مبحث الألفاظ الشرعية، لم يخل من شوائب تخللت تصور العلماء لطبيعة الألفاظ الشرعية في علاقتها بالدلالة اللغوية؛ والتي لو تم تجاوزها لكان هذا المبحث بحق درسا أصيلا لمفهوم المصطلح القرآني...

فقد ساد جدل بين الأصوليين بخصوص علاقة هذه الألفاظ بالوضع اللغوي، هل هي منقولة من هذا الوضع إلى معان خاصة، أم أنها تستعمل في الشرع على نفس الوضع اللغوي، مع زيادة بعض المدلولات الخاصة، أو تقييد بعضها أو غير ذلك من أنواع التصرف، أم أنها نقلت ثم بعد اشتهارها صارت حقائق. ومنهم من فرق بين الأسماء الشرعية والدينية، فأثبت النقل في الشرعية ونفاه في الدينية، وهناك من أثبته في النوعين؛ والحقيقة أن هذا الخلاف هو **انعكاس للخلاف الكلامي** في مدلولات بعض هذه الألفاظ كلفظ الإيمان مثلا، ولذلك فإن معالجة هذه القضية لم تتم بمعزل عن الخلفيات المذهبية لأصحابها، فقول البعض ببقاء الأسماء الدينية

---

[1] البحر المحيط للزركشي: 2/ 155.

[2] نفسه.

على وضعها اللغوي كان القصد منه تثبيت مفهوم الإيمان لدى المرجئة، وهو أنه التصديق دون العمل، وقـول البعض بنقل الألفاظ الشرعية من الوضع اللغوي إلى الوضع الشرعي، كان مقدمة لاعتبارها مجازات، ومـن ثم إمكانية نفيها أو تأويلها.

وتأثرا بنفس الخلفيات المذهبية، حصر المعتزلة الألفاظ الدينية في ثلاثة ألفاظ هـي الكفـر والإيمـان والفسق، مع أن نظائر هذه الألفاظ في القرآن كثير. ولذلك يمكن القول إن التمييز بـين الألفـاظ الشـرعية والألفاظ الدينية، وتحديد بعضها، لم يكن نتيجة تصور شمولي لمفهوم اللفظ الشرعي أو الديني، أو بتعبير آخـر لمفهوم المصطلح القرآني، وإنما كان نتيجة تصورات مذهبية ضيقة، حجبت عن أصحابها رؤية هذا المفهـوم في رحابته.

والناظر في هذا النقاش لا يمكن أن يفصله أيضا عن الإطار العام الذي يدرس فيه وهو بـاب **الحقيقـة والمجاز**، ولذلك خيمت على هذه المسألة قضية الحقيقة والمجاز بما تحمله من إشكالات وظلال لغوية ومنطقيـة، فلم يستطع العلماء النظر إلى علاقة المصطلح القرآني بالمعنى اللغوي بمعزل عن مفهوم **النقل** الذي هـو أسـاس المجاز، وكان بالإمكان دراسة هذه العلاقة ضمن مبدأ **التطور الدلالي** الذي تخضع له اللغة عموما، أو انطلاقـا من الدراسة التطبيقية لهذه الأسماء الشرعية وعلاقة الدلالة الشرعية فيها بالدلالة اللغوية، وقد وجدنا إشـارات إلى ذلك في دراستهم لألفاظ الصلاة والحج والزكاة، يمكن تعميمها لتشمل كل المصطلحات التي تحمل مفاهيم قرآنية خاصة، لأن المعيار الذي دفعهم إلى اعتبار ألفاظ مثل الصلاة، والزكاة والحج، أو مثل: الإيمان والنفـاق والفسق ألفاظا شرعية أو أسماء دينية، هو نفسه المعيار الذي يجعل ألفاظا مثل: العدل والتقوى والصبر والهجـرة وغيرها مصطلحات قرآنية، مادامت مشبعة بالدلالات القرآنية الخالصة التي **لم يكن للناس بها علم ـــ بهـذه الصورة ـــ قبل نزول القرآن الكريم**.

2. أوجه عناية العلماء بالمصطلح القرآني: الجانب التطبيقي

تتسع عناية العلماء بالمصطلح القرآني درسا وتحليلا – وهو المقصود هنا بالتطبيق – بشـكل يصـعب عرضه في مثل هذا المقام، وهو وجه من وجهي الصعوبة المشار إليها آنفا في حصر الجهود الخادمة للمصـطلح القرآني، يضاف إلى ذلك أن الحديث عن الجوانب التطبيقية يقتضي عرض نماذج من هذه الجهود: من نصوص ونقول وشواهد، لذلك سيتبع البحث منهج الوصف المركز لبعض هذه الجهود، مع التمثيل لها وما يستتبع ذلك من تحليل أو تعليق أو نقد.

1.2. في كتب الغريب ومعاجم الألفاظ القرآنية

لم يغب عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم في المراحل الأولى لتلقي القرآن الكريم أهمية ألفاظـه باعتبارها المدخل الأساس لفهمه وبيانه، ولذلك كان تفسيرهم للقرآن الكريم منصبا على شـرح المفـردات، وانصرفت جهودهم وجهود التابعين لهم إلى التعامل مع **المعجم القرآني الخاص** الذي استعملت فيـه أحيانـا

ألفاظ **بعدت عن الفهم** واحتاجت إلى البيان ممن لهم علم ودراية بالمعجم اللغوي والشعري الموروث عن العصور السابقة، وقد أثمرت هذه المرحلة **كتب الغريب** التي يمكن اعتبارها **الجهود الأولى لخدمة مصطلحات القرآن الكريم شرحا وبيانا**.

ثم تطور التأليف في علم الغريب في اتجاهين: الأول سار باتجاه التفسير، وذلك بتوسيع دائرة البيان لتشمل اللغة والقراءة والمعاني والأحكام، والثاني سار باتجاه معاجم الألفاظ القرآنية، أو المعاجم الاصطلاحية الخاصة بألفاظ القرآن الكريم.

فالمسار التفسيري، كان التطور الطبيعي للمؤلفات الأولى في الغريب التي اتبعت المنهج التفسيري في الترتيب، حيث تطور هذا التوجه بعدما أضيف إلى المستوى المعجمي في تفسير المفردات الغريبة، مستويات تركيبية وصوتية « النحو والقراءة» مع "كتب المعاني" مع بيان خصائص استعمال هذه المفردات في الخطاب القرآني، وعلاقة ذلك بالاستعمال اللغوي عند العرب في ديوانهم الشعري العريق، ويمكن التمثيل لذلك بكتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (ت: 208)، وكتابي " غريب القرآن" و"تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة (ت: 276)، و"معاني القرآن" للفراء (ت:207)، وكتاب "معاني القرآن" للأخفش الأوسط (ت:210)...، ثم استمر هذا التطور الذي كانت محطة تفسير الطبري فيه فاصلة مميزة، وهناك سنشهد عناية خاصة بالمصطلح القرآني كما سيأتي.

ما يستوقفنا في هذا المسار وفي هذه المصادر التي تمثله هو كتاب "**تأويل مشكل القرآن**" لابن قتيبة، وذلك لأنه يقدم خدمة متميزة للمصطلح القرآني في هذه الفترة المتقدمة، ورغم أن من مقاصد الكتاب الأساسية هي الكشف عن خصائص الخطاب القرآني والرد على الطاعنين في القرآن الكريم من هذه الجهة، فإنه في هذا السياق يفصح عن دلالات بعض المصطلحات القرآنية، ويشكل بذلك مصدرا لدارسي هذه المصطلحات، من ذلك مثلا بيانه لبعض معاني مصطلح الذكر: «الذكر يوضع موضع الشرف، لأن الشريف يذكر، قال الله تعالى "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ" [الزخرف: 44] وقال تعالى: "لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ" [الأنبياء: 10]، أي شرفكم، وقال: "بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ" [المؤمنون: 71]» [1].

لكن أهم ما يقدمه كتاب ابن قتيبة للمهتمين بالمصطلح القرآني هو ما جاء في باب سماه: «اللفظ الواحد للمعاني المختلفة»، وقد يُظن أنه كلام في المشترك اللفظي، أو أنه شبيه بصنيع أصحاب الوجوه والنظائر، لكن بالنظر في طريقة عرضه لمادة هذا الباب يتبين أنه يقدم نماذج من المصطلحات القرآنية **ودلالاتها في عدد من الموارد والسياقات**، وفق خطة منهجية يقصد من خلالها إلى: بيان الأصل الدلالي للمصطلح، ثم المعاني الجزئية

[1] تأويل مشكل القرآن: 147.

التي استعمل فيها في القرآن الكريم، مع إشارته ــ أحيانا ــ إلى المعنى العام الذي ترجع إليه رغم اختلاف معانيها الجزئية في تلك السياقات. ويمكن التمثيل لذلك بما ذكره في معاني **القضاء**:

«أصل قضى: حتم... ثم يصير الحتم بمعان كقوله "وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ" [الإسراء: 23]، أي أمر، لأنه لما أمر حتم بالأمر، وكقوله: "وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ" [الإسراء: 4] أي أعلمناهم، لأنه لما خبرهم أنهم سيفسدون في الأرض حتم بوقوع الخبر"، وقوله: " فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ" [فصلت: 12] أي صنعهن ... ومثله قوله: " فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ" [يونس: 71] أي اعملوا ما أنتم عاملون ولا تنظرون ... لأن كل من عمل عملا وفرغ منه فقد ختمه وقطعه... وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد» [1].

وفي معاني الهدى بين أن أصل الهدى: الإرشاد، ثم حدد المعاني المختلفة للإرشاد في بعض الموارد منها: الإرشاد بالبيان، والإرشاد بالدعاء والإرشاد بالإلهام والإرشاد بالإمضاء، ثم علق على هذه المعاني بما يشير إلى ذلك الرابط الدلالي العام الذي يجمعها، فقال: «وبعض هذا قريب من بعض» [2].

وبنفس النهج تقريبا درس ابن قتيبة أربعة وأربعين مصطلحا من المصطلحات القرآنية التي رآها جديرة بالدرس في مقام الذب عن لغة القرآن وأسلوبه الذي جعله مقصدا لتأليفه؛ من هذه المصطلحات: الأمة والعهد والقنوت والدين والضلال والإمام والصلاة والكتاب والظلم والبلاء والفتنة والإسلام والإيمان والوحي...

أما المسار المعجمي، في تطور التأليف في الغريب، فقد بدأ التأليف فيه مع ازدياد الحاجة إلى ضبط المفردات القرآنية وتحقيق معانيها اللغوية وتمييز دلالاتها القرآنية، وهو تطور طبيعي ساير التطور الحاصل في معاجم مصطلحات العلوم عموما، وقد شكل كتاب **مفردات القرآن للراغب الأصفهاني** محطة تحول في هذا المسار، وشكل نموذجا متميزا للتأليف المعجمي الاصطلاحي الخاص بألفاظ القرآن الكريم، ولم تستطع التأليفات المتواردة في نفس المجال في العصور اللاحقة، زحزحته عن هذه المكانة المتميزة.

ومما يشهد لأهمية كتاب المفردات في تعميق الوعي بأهمية المصطلح القرآني في هذه المرحلة تنبيهه –على مستوى التنظير – على أهمية **الألفاظ في تحصيل معاني القرآن الكريم** ومحوريته في فهمه وتفسيره من خلال مقدمة الكتاب[3]، وعنايته الخاصة – على مستوى التطبيق – بدراسة هذه الألفاظ عبر ثلاثة مستويات من الدراسة:

---

[1] تأويل مشكل القرآن: 441-442.

[2] تأويل مشكل القرآن: 444.

[3]– وذلك ما أشار إليه بقوله: «إن أول ما يُحتاج أن يُشتَغَل به من علوم القرآن، العلومُ اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيقُ الألفاظ المفردة فتحصيلُ معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المُعاون لمن يريد أن يدرك معانيه... وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علمٍ من علوم الشرع، فألفاظ القرآن: هي لبّ كلام العرب وزبدتُه وواسطته وكرائمُه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمِهِم، وإليها مَفزعُ الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم...»..

مستوى لغوي: يحرص الراغب فيه على الإشارة إلى الأصل الدلالي للفظ، مستفيدا في ذلك من ثقافته اللغوية وسعة اطلاعه على المعاجم اللغوية، وغايته من بيان الأصول الدلالية للألفاظ: التعريف بالمعنى الأصل الذي تلتقي عنده معاني كل الاشتقاقات المتفرعة عن الجذر اللغوي للفظ، مما يسمح بملاحظة الصلات الدلالية بين تلك الاشتقاقات.

مستوى سياقي، وفيه يتتبع الاستعمالات القرآنية للمفردة ويبين معانيها المختلفة بحسب تلك الاستعمالات، وهي خطوة مرتبطة بالخطوة السابقة، فبعد بيان الأصل الجامع يقوم بتتبع استعمالات الكلمة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، مبينا دلالات هذه الاستعمالات التي تكشف عنها سياقات الكلمات وإضافاتها وتصريفاتها المختلفة.

مستوى اصطلاحي، وهو المتوج لكل ما سبق وفيه يحدد الدلالة القرآنية العامة للفظ، أو المعنى الاصطلاحي القرآني الذي صار إليه اللفظ باستعماله في القرآن الكريم، وتظهر قيمة ما يقدمه الراغب من خدمة للمصطلح القرآني في هذا المستوى من خلال ثلاثة أمور:

– الأول: وضع تعريفات دقيقة للمصطلحات: وهو بذلك يقدم خدمة معجمية اصطلاحية خاصة بالمصطلح القرآني، يتم فيها وضع التعريفات الدقيقة، وتحري المعاني الصحيحة ومناقشة التعريفات الناقصة أو المغلوطة، كما يتم في هذه التعريفات — في كثير من الأحيان — تحديد الفروق الدقيقة بين الألفاظ التي يظن ترادفها، مثال ذلك قوله في الفرق بين الإباء والامتناع: «الإباء: شدة الامتناع، فكل إباء امتناع وليس كل امتناع إباء»[1]. وقوله في الفرق بين الأرب والحاجة: «الأرب: فرط الحاجة المقتضي للاحتيال في دفعه، فكل أرب حاجة، وليس كل حاجة أربا، ثم يستعمل تارة في الحاجة المفردة، وتارة في الاحتيال وإن لم يكن حاجة»[2]، وفي الفرق بين الخشوع والضراعة يعتمد على ملاحظة الاستعمال القرآني فيقول: «أكثر ما يستعمل الخشوع في ما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل في ما يوجد في القلب»[3].

– الثاني: تصحيح المفاهيم وضبطها، وذلك حين يتبادر إلى الذهن عند سماع الكلمة معنى ليس هو المراد منها بدقة...

– الثالث: وضع بعض القواعد الخاصة باستعمال القرآن لبعض الألفاظ، وهي قواعد مستفادة من مستويات الدرس السابقة، حيث يُمَكّن النظر في سياقات الاستعمال القرآني، وفي خصائص المصطلح الدلالية،

---

[1] المفردات: (أ ب ى).
[2] المفردات: (أ ر ب).
[3] المفردات: (خ ش ع).

من ملاحظة هذه القواعد[1]، من ذلك مثلا قوله: «أكثر ما ورد " الخوض " في القرآن فيما يُذَمُّ الشروع فيه»[2]، أو قوله: «حص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر»[3].

لقد مكن تأصيل الراغب لهذا النظر الخاص للمصطلح القرآني من استمرار التأليف والدرس في هذا المجال، ونذكر هنا كتاب "عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي"، وكتاب "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب" العزيز للفيروزآبادي، ومن مؤلفات المحْدَثين كتاب "مفردات القرآن" للعلامة الهندي عبد الحميد الفراهي (ت:1930/1349م). ويصعب تتبع هذه المصادر لبيان ثرائها من جهة تعريف المصطلحات القرآنية، وتحقيق دلالاتها، في هذا المقام، ولعل ذلك يكون في موضوع مستقل عن أهمية معاجم الألفاظ القرآنية في دراسة المصطلح القرآني...

2.2 . في كتب الوجوه والنظائر

رغم أن التأليف في علم الوجوه والنظائر بدأ مبكرا على يد مقاتل ابن سليمان (ت:150)، ووجدت إرهاصاته عند طبقة من التابعين، إلا أنه لم يعرف ظهورا وانتشارا إلا في مراحل متأخرة وتحديدا بعد القرن الرابع الهجري[4]، ولذلك رتب في هذا العرض بعد علم الغريب والمفردات.

أهم ما ميز كتب "الوجوه والنظائر" تركيزها على عرض دلالات الألفاظ والمفردات في **علاقتها بسياقات ورودها**، حيث يكون للفظ في كل سياق معنى غير معناه في سياق آخر. والحقيقة أن هذا الأمر هو ما يجعل كتب الوجوه والنظائر تمثل جانبا مهما من اهتمام علمائنا بالمصطلح القرآني، جمعا ودراسة، على خلاف غيرها من المصادر الدارسة لألفاظ القرآن الكريم؛ فقد حاولت حصر كل أو جل السياقات التي يرد فيها اللفظ، مبينة دلالاته فيها، ولا شك أن حصر هذه المعاني، وتمييزها بحسب السياقات التي وردت فيها، من أكبر المعاون على تفهم دلالتها في القرآن الكريم عامة، وعلى تجنب الخطأ في تحديد تلك الدلالة، وهو ما يشكل أحد أركان الدرس المصطلحي لهذه الألفاظ.

ومع أهمية ما قدمته كتب الوجوه والنظائر من فائدة علمية لدارسي مصطلحات القرآن الكريم، يلاحظ أن تركيزها على الدلالات السياقية الجزئية لهذه المصطلحات، جعلها أحيانا تنشغل بتتبع هذه السياقات على حساب الدلالة العامة لها التي تلازم اللفظ مهما تباينت مواضع استعماله.

---

1 وهذا أمر سبق الراغبَ إليه بعض المفسرين من التابعين كما سيأتي بيانه.

2 نفسه: (خ و ض).

3 نفسه: (ب ش ر).

4- بعد كتاب مقاتل بن سليمان(ت:150) "الأشباه والنظائر في القرآن" ظهرت أغلب المصنفات بعد القرن الرابع ككتاب "الأشباه والنظائر" للثعالبي (ت: 429)، وكتاب" إصلاح الوجوه والنظائر" للدامغاني(ت:478)، و"منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر" لابن الجوزي (ت:497).

ومن الأمثلة على تغليب السياقات القريبة على الدلالات العامة: اعتبار ابن الجوزي **الزنا** أحد وجوه لفظ "**الخيانة**"[1] في قوله تعالى « وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» في سورة يوسف، والآية تأتي بعد قوله تعالى: « قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ»، وتفسيره للخيانة بالزنا اعتمد على سياق القصة في السورة، دون مراعاة الدلالة العامة للفظ، والناظر في هذه الآيات يلحظ أن الخيانة لا تعني الزنا بالتحديد، ولكن كل ما ذكر من أفعال: الغواية والمراودة والكيد.

كما تم تفسير أوجه الكثير من المصطلحات بمصاديقها في الواقع بدل مفاهيمها المجردة، ومن الأمثلة على ذلك: تفسير مقاتل للفظ **الطاغوت** في أحد وجوهه بكعب بن الأشرف[2] في سورة البقرة: (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) [البقرة: 257]، مع أن مفهوم الطاغوت في الآية أعم، وتفسير ابن الجوزي للفظ **الإنسان**، حيث ذكر أنه على خمسة وعشرين وجها منها: آدم عليه السلام، وأولاد آدم، وأبو بكر الصديق، وسعد بن أبي وقاص، والوليد بن المغيرة، وقرط بن عبد الله، وأبو جهل بن هشام، والنظر بن الحارث، وبصيصا العابد، وبديل بن ورقاء، والأخنس بن شريق[3].....

ولا يشك ناظر في هذه الوجوه التي فسر بها لفظ الإنسان أنها أقرب إلى تحديد المعنيّ باللفظ المبهم «إنسان» من تحديد مفهوم الإنسان عموما، ونجد هذا الأمر يتكرر أيضا في ألفاظ أخر تدل على الجنس كلفظ المرأة والرجل، ولا يخفى أن تحديد هذه الوجوه مبني على معطيات أسباب النزول، وهي من مكونات السياق الأساسية التي تم تغليبها في هذه الدراسات.

وغير بعيد عن مجال الوجوه والنظائر كان اهتمام بعض العلماء بخاصية تفرد بعض الألفاظ بدلالات معينة في سياقات بعينها تخرج بها عن المعنى المطرد لها في استعمالات كثيرة وهو ما سمي **بالأفراد**، ولا يكاد يذكر من كتب التراث في هذا الباب سوى كتاب فرد لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت:395) وهو كتاب "الأفراد" وقد نقل منه الزركشي في البرهان ما ساقه في باب الوجوه والنظائر من أمثلة: مثل « كل ما في القرآن من ذكر "الأسف"، فمعناه الحزن إلا: "فَلَمَّا آسَفُونَا" فمعناه أغضبونا، وكل ما فيه من ذكر البروج فهي الكواكب إلا: "وَلَو كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ"، فهي القصور الطوال الحصينة، وكل ما فيه من «سخر» فالاستهزاء إلا: "سُخْرِيًّا" في الزخرف فهو من التسخير والاستخدام»[4]. ورغم أن هذا النوع من الدرس يقصد

---

[1]- نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي، ص:281 .

[2]- الوجوه والنظائر، لمقاتل بن سليمان، ص: 27.

[3]- نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي، ص: 176 ..

[4]- البرهان: 105/1 .

إلى بيان بعض الخصائص الإعجازية في لغة القرآن الكريم، إلا أنه يقدم خدمة خاصة للمصطلح القرآني تنطوي على التنبيه **على مراعاة السياق في تحديد دلالات اللفظ المتكرر** استعماله في القرآن الكريم.

3.2. في كتب التفسير

عناية المفسرين بالمصطلح القرآني جزء من عنايتهم باللفظ القرآني عموما: شرحا وبيانا ودرسا وتحليلا، وسيركز في هذا الحيز من البحث على عنايتهم الخاصة بهذا اللفظ من جهة كونه مصطلحا ذا دلالة خاصة، تحتاج أحيانا إلى **تعريف** وأحيانا إلى **ضبط وتحقيق**، وأحيانا إلى **مقارنة بدلالة مصطلح** آخر مقارب أو مباين، وأحيانا إلى **تصحيح فهم** خاطئ علق في ذهن الناس عنه، إلى آخر ذلك من وجوه العناية بالمصطلح، المستصحبة لأهميته في تشكيل الرؤية القرآنية للقضايا والموضوعات التي يستعمل فيها، ويمكن بيان أوجه هذه العناية من خلال ما يلي:

1.3.2. ضبط مفهوم المصطلح وتعريفه:

المصطلح القرآني ككل المصطلحات لا يحاط به علما إلا بوضع الحدود والتعريفات المبينة لسماته وخصائصه، وحاجة المصطلح القرآني إلى التعريف هي أم الحاجات، نظرا لما حدث في الأمة من انحراف في الفهم وغبش في التصور نتج عنه ركام من الفوضى المصطلحية. ولقد صدق الشيخ الفراهي حين رآى أن « الخطأ في حد كلمة واحدة أنشأ مذهبا باطلا، وأضل قوما عظيما، وجعل الملة بددا»[1].

وفي كتب التفسير يعتبر الشرح والتفسير والتأويل مستويات من البيان، أخضع بموجبها المفسرُ كل مكونات النص القرآني للدرس والتحليل: مفردات وتراكيب، وكانت تلك وظيفته الأساس، لكن المفسرين مع ذلك ارتقوا في عنايتهم بألفاظ القرآن الكريم إلى مستوى أدق وأعمق أحيانا، وهو: مستوى ضبط هذه الألفاظ عن طريق وضع **تعريفات** لها؛ والتعريف مرتبة أدق من الشرح والتفسير، إذ يقصد به تحديد الدلالة وتسييجها بما يمنع إدخال ما ليس منها فيها، وإخراج ما هو فيها منها؛ ووضعُ التعريفات للمصطلحات القرآنية من قبل المفسرين، يشكل وعيا حقيقيا بأهمية ضبط مفاهيم المصطلحات القرآنية، وتمييزها عن دلالتها خارج هذا المجال.

والأمثلة على ضبط المفسرين للمصطلحات القرآنية من خلال وضع تعريفات لها كثيرة، يمكن الإشارة إلى نماذج منها في ما يلي:

- **المثال الأول**: تحقيقهم وضبطهم لمفهوم التوكل، والتوكل من المصطلحات التي استعملت خارج النص القرآني في مجال التصوف والسلوك واتخذت هنالك أبعادا باعدت بينها وبين الدلالة القرآنية، ولذلك وقف المفسرون عند هذا المصطلح وحاولوا تمييز دلالته القرآنية من خلال التعريف تارة، ومن خلال الفصل بين مدلوله في المجالين، تارة أخرى:

---

[1]- المفردات، للفراهي، ص: 51.

فعلى مستوى التعريف نجد الزمخشري (ت:538) يعرفه بقوله: «التوكل: **تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره**» وإمعانا في ضبط هذا المفهوم ذكر ــ نقلا عن البعض ــ أن هذا التفويض لا يعارضه محاولة دفع ما يترل بالإنسان من محنة بشرط ألا يكون ذلك بمعصية، قال: «فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة ثم سأل غيره خلاصه، لم يخرج من حد التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله» [1]. وقد نقل هذا التعريف عن الزمخشري كل من الرازي والنسفي والخازن وأبي حيان وابن عادل والألوسي.

ومن التعريفات التي أوردها غيره من المفسرين في مواضع مختلفة من موارد اللفظ في القرآن الكريم:

– تعريف رواه ابن الجوزي (597) عن بعضهم: «هو تفويض الأمر إلى الله ثقة بحسن تدبيره»[2]

– تعريف القرطبي (671): «التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بد منه من الأسباب»[3].

– تعريف ابن جزي(741): «التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع أو حفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها»[4].

وعلى مستوى التمييز بين الدلالة القرآنية لمصطلح التوكل ودلالته خارج هذا المجال، جاءت أقوال المفسرين مرتكزة في هذا التمييز على قرائن من السياق، ومن ذلك قول الرازي (ت:606): «دلت الآية [آل عمران: 159] على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه، كما يقوله بعض الجهال، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق»[5]، ورد القرطبي قول بعض المتصوفة: إن التوكل لا يكون مع الخوف بالإشارة إلى سياقات قرآنية نسب فيها الخوف إلى ثلة من الأنبياء كموسى وهارون وإبراهيم[6].

– **المثال الثاني**: تحقيق ابن عطية لمعنى **التوبة** في تفسيره لقوله عز وجل: « وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» [هود: 52] **معقبا على ما قاله إمام الحرمين**: «... قال أبو المعالي في الإرشاد: "التوبة" في اصطلاح المتكلمين هي الندم، بعد أن قال: إنها في اللغة الرجوع، ثم ركب على هذا أن قال إن الكافر إذا آمن ليس إيمانه توبة وإنما توبته ندمه بعد، قال القاضي أبو محمد: والذي أقول: إن التوبة **عقد في ترك متوب منه يتقدمها علم بفساد المتوب منه وصلاح ما**

---

[1]- الكشاف 422/4.

[2]- زاد المسير 450/1

[3]- الجامع لأحكام القرآن 291/5

[4]- التسهيل لعلوم التتريل: 164/1.

[5]- مفاتيح الغيب: 69/9-70 .

[6]- الجامع لأحكام القرآن: 386/5.

يرجع إليه، ويقترن بها ندم على فارط المتوب منه لا ينفك منه وهو من شروطها؛ فأقول إن **إيمان الكافر هو توبته من كفره،** لأنه هو نفس رجوعه، و "تاب" في كلام العرب معناه رجع إلى الطاعة والمثلى من الأمور، **وتصرف اللفظة في القرآن ب «إلى» يقتضي أنها الرجوع لا الندم،** وإنما لا حق لازم للتوبة كما قلنا، **وحقيقة التوبة ترك مثل ما تيب منه عن عزمة معتقدة** على ما فسرناه، والله المستعان»[1]. فقد صحح ابن عطية مفهوم التوبة في اصطلاح المتكلمين انطلاقا من دلالته القرآنية.

- **المثال الثالث**: تحقيق ابن العربي (543) مفهوم الغيب بقوله: «وَحَقِيقَتُهُ [أي الغيب] **مَا غَابَ عَنْ الْحَوَاسِّ مِمَّا لَا يُوصَلُ إلَيْهِ إلَّا بِالْخَبَرِ** دُونَ النَّظَرِ... وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: مَا ذَكَرْنَاهُ كَوُجُوبِ الْبَعْثِ، وَوُجُودِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا وَعَذَابِهَا وَالْحِسَابِ. **الثَّانِي: بِالْقَدَرِ. الثَّالِثُ: بِاَللَّهِ تَعَالَى** «...» وَكُلُّهَا قَوِيَّةٌ إلَّا الثَّانِي وَالثَّالِثَ؛ فَإِنَّهُ يُدْرَكُ بِصَحِيحِ النَّظَرِ، فَلَا يَكُونُ غَيْبًا حَقِيقَةً، وَهَذَا الْأَوْسَطُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا فَإِنَّ مَخْرَجَهُ عَلَى الْخُصُوصِ. وَالْأَقْوَى هُوَ الْأَوَّلُ؛ أَنَّهُ الْغَيْبُ **الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا لَا تَهْتَدِي إلَيْهِ الْعُقُولُ**»[2]. والحق أن هذا التحقيق يحل إشكالا في مفهوم الغيب الذي صار متعارفا عند المفسرين وغيرهم أنه يعني ـــ من بين ما يعنيه ـــ **الله عز وجل،** ولقد وقفت مع هذا الإشكال طويلا بعد أن أثاره أستاذنا الدكتور الشاهد البوشيخي يوما مستبعدا أن يكون الله عز وجل ضمن مدلول لفظ الغيب، إلى أن وجدت نص ابن العربي الذي كشف الأمر بتعريف الغيب الذي تضمن قيد: "ما لا يتوصل إليه إلا بالخبر".

- **المثال الرابع**: وهو يتعلق هنا بنماذج من التعريفات الجامعة لبعض المصطلحات، كتعريف ابن عطية مصطلح الإنذار: «والإنذار إعلام بتخويف، هذا حده»[3]، وتعريف الطبرسي(ت: 548) للريب بألفاظ جامعة: «الريب: الشك مع تهمة»، وتعريف مصطلح **الدين** الذي نقله ابن الجوزي عن الزجاج: «**الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه، وأمرهم بالإقامة عليه، وأن يكون عادتهم، وبه يجزيهم**»[4] وهو من أجمع التعريفات لمصطلح الدين.

إن عناية المفسرين بوضع تعريفات لبعض المصطلحات القرآنية يعكس وعيهم بأهمية ضبط دلالاتها حتى لا يساء فهمها أو يتم الخلط بينها وبين غيرها، لكننا لن نستطيع الزعم بأن كل التعريفات التي وضعها المفسرون لمصطلحات قرآنية هي تعريفات جامعة للدلالة القرآنية الخالصة من شوائب الدلالات الحادثة خارج النص القرآني؛ وإن كانت مفيدة في باب تعريف بعض المصطلحات لتدقيقها في بعض سماتها الدلالية، كما لن

---

[1]- المحرر الوجيز: 180/3.

[2]-أحكام القرآن:16/1.

[3]- المحرر الوجيز: 1/ 88.

[4]- زاد المسير: 362/1-363.

نستطيع الادعاء بأن وضع هذه التعريفات جاء نتيجة تتبع وإحصاء ودرس وتحليل لكل النصوص التي ورد فيها المصطلح، لكنها ــ بالتأكيد ــ ثمرة نظر دائم وتدبر عميق لنصوص القرآن الكريم...

2.3.2. بيان العلاقات المفهومية بين المصطلحات:

إن دراسة أوجه العلائق المفهومية بين المصطلحات من أهم مستويات الدرس التفسيري للمصطلح القرآني، وهو درس مهم لما يترتب عليه من زيادة ضبط وتمييز وتحقيق لهذه المصطلحات، فكثيرا ما وقع الخلط أو عدم التمييز الدقيق بين دلالات مصطلحات ظُن أنها متقاربة المعنى، وكثيرا ما احتيج إلى الفروق بين مصطلحات متباينة المعنى.

ولا يتم تحديد هذه العلائق وتلك الفروق إلا بملاحظة دوران تلك المصطلحات في القرآن الكريم، وما يقترن بها في الاستعمال، بعد معرفة دقيقة بخصائصها الدلالية في المعجم، وغير ذلك من المعطيات والقرائن المعينة على ضبط هذه العلاقات، ويمكن التمييز في جهود المفسرين في خدمة المصطلح القرآني من هذه الزاوية بين مستويين: الأول درست فيه العلاقة بين عدد من المصطلحات الواردة في الآيات، والثاني حددت من خلاله الفروق بين بعض المصطلحات المتقاربة المعنى.

في المستوى الأول نذكر الأمثلة الآتية:

المثال الأول: ضبط الطبري للعلاقة بين مصطلحي "العدل" و"التقوى"، في قوله عز وجل: «اعدلوا هو أقرب للتقوى»[المائدة: 8] بقوله: «وأما قوله: هو أقرب للتقوى فإنه يعني بقوله: هو العدل عليهم أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، يعني: إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئا من معاصيه. وإنما وصفه جل ثناؤه العدل بما وصف به من أنه أقرب للتقوى من الجور، **لأن من كان عادلا كان لله بعدله مطيعا، ومن كان لله مطيعا كان لا شك من أهل التقوى**، ومن كان جائرا كان لله عاصيا، ومن كان لله عاصيا كان بعيدا من تقواه»[1].

ويضيف أبو حيان في تفسيره للآية بعدا آخر لعلاقة التقوى بالعدل، وهو ورودهما في الآية مع صفة "الخبير" (إن الله خبير بما تعملون) يقول: «لما كان الشنآن محله القلب وهو الحامل على ترك العدل أمر بالتقوى، وأتى بصفة خبير ومعناها عليم، ولكنها تختص بما لطف إدراكه، فناسب هذه الصفة أن ينبه بها على الصفة القلبية»[2].

- **المثال الثاني**: يتضمن إشارات نظرية تتعلق بضبط أسس هذا النوع من العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحاته، مع دراسة لنموذج منها، وذلك ما نجده عند الرازي في تفسيره لقول الله عز وجل: «إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

---

[1]- جامع البيان: 224/8.

[2]- البحر المحيط: 455/3.

[النحل: 90]، وقد تفطن الرازي إلى وجوب مراعاة ورود هذه الألفاظ بهذا الترتيب في التفسير، وأنه ترتيب مقصود يجب بيان مقاصده من خلال العلاقة بين كل هذه الألفاظ، قال: «... إنما حسن تفسير لفظ معين لشيء معين إذا حصل بين ذلك اللفظ وبين ذلك المعنى مناسبة، أما إذا لم تحصل هذه الحالة كان ذلك التفسير فاسدا، فإذا فسرنا العدل بشيء والإحسان بشيء آخر وجب أن نبين أن لفظ العدل يناسب ذلك المعنى، ولفظ الإحسان يناسب هذا المعنى، فلما لم نبين هذا المعنى كان ذلك مجرد التحكم، و لم يكن جعل بعض تلك المعنى تفسيرا لبعض تلك الألفاظ أولى من العكس» ثم شرع بعد ذلك في بيان العلاقة بين هذه المصطلحات قائلا: «ظاهر هذه الآية يدل على أنه تعالى أمر بثلاثة أشياء، وهي العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن ثلاثة أشياء هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي فوجب أن يكون العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ثلاثة أشياء متغايرة. ووجب أن تكون الفحشاء والمنكر والبغي ثلاثة أشياء متغايرة لأن العطف يوجب المغايرة فنقول: أما **العدل** فهو عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وذلك أمر واجب الرعاية في جميع الأشياء [وقد بين مطيلا هذا العدل في الاعتقادات وأعمال الجوارح]... وأما **الإحسان** فاعلم أن الزيادة على العدل قد تكون إحسانا وقد تكون إساءة. مثاله: أن العدل في الطاعات هو أداء الواجبات أما الزيادة على الواجبات فهي أيضا طاعات وذلك من باب الإحسان، وبالجملة فالمبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الإحسان ... واعلم أن الإحسان بالتفسير الذي ذكرناه دخل فيه التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله، ومن الظاهر أن الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة وأشرفها وأجلها صلة الرحم لا جرم أنه سبحانه أفرده بالذكر فقال: "**وإيتاء ذي القربى**" فهذا تفصيل القول في هذه الثلاثة التي أمر الله تعالى بها»[1].

- <u>**المثال الثالث**</u> من تفسير الرازي أيضا للآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» [يونس:57] حيث وصفت الآية القرآن الكريم بصفات أربعة: الموعظة والشفاء والهدى والرحمة، «ولا بد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة»، وقد بينها مشبها إياها بالأدوية التي تعالج بتركيبها القلوب المريضة، وأول هذه الأدوية: النهي عن تناول ما لا ينبغي والأمر بالاحتراز عن الأشياء التي يسببها المرض «**وهذا هو الموعظة، فإنه لا معنى للوعظ إلا الزجر عن كل ما يبعد عن رضوان الله تعالى، والمنع عن كل ما يشغل القلب بغير الله**»؛ وثانيها: «الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض...» والثالثة: «حصول الهدى، وهذه المرتبة لا يمكن حصولها إلا بعد المرتبة الثانية...» والرابعة: «أن تصير النفس البالغة إلى هذه الدرجات الروحانية ... بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين» وذلك هو المراد بالرحمة. وبعد بيان هذه الألفاظ نبه الرازي على

[1]- مفاتيح الغيب: 20/103-106.

أنها تدل على معان متراتبة « مدلول عليها بهذه الألفاظ القرآنية **لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره، ولا تقديم ما تأخر ذكره**» [1].

- **المثال الرابع**: ضبط الشيخ الطاهر بن عاشور للعلاقة بين إكمال الدين وإمام النعمة، في قوله عز وجل: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [المائدة 3]: «وظاهر العطف يقتضي: أنّ تمام النعمة منّة أخرى غير إكمال الدين، وهي نعمة النصر والأخوّة، وما نالوه من المغانم، ومن جملتها إكمال الدين، فهو عطف عامّ على خاصّ. وجوّزوا أن يكون المراد من النعمة الدّين، وإتمامها هو إكمال الدين، فيكون مفاد الجملتين واحداً، ويكون العطف لمجرّد المغايرة في صفات الذات، ليفيد أنّ **الدين نعمة وأنّ إكماله إتمام للنعمة**» [2].

هذه بعض الأمثلة على المستوى الأول من دراسة العلاقات بين المصطلحات، أما المستوى الثاني الذي بُينت فيه الفروق بين بعض المصطلحات المتقاربة، أو المتباينة، فنسوق لها الأمثلة الآتية:

المثال الأول: بيان الماتريدي (ت:333) الفرق بين العبادة والطاعة: «**العبادة جعل العبد كليته لله قولا وعملا وعقدا**، وكذلك التوحيد والإسلام، **والطاعة ترجع إلى الائتمار** لأنه يجوز أن يطاع غير الله، ولا يجوز أن يعبد غير الله؛ لأن كل من عمل بأمر آخر فقد أطاعه كقوله: « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول « [المائدة: 92]، ولا كل من عمل بأمر آخر فهو عابده له» [3] .

- **المثال الثاني**: بيان ابن عطية (ت:542) للفرق بين الحمد والشكر: «الحمد معناه الثناء الكامل...وهو أعم من الشكر، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدى إلى الشاكر... والحمد المجرد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدي شيئا» [4] .

- **المثال الثالث**: بيان الرازي للفرق بين الحسد والمنافسة، في معرض تفسيره لمعنى الحسد في قوله عز وجل: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ...» [البقرة: 109]: حيث قال: «إذا أنعم الله على أخيك بنعمة فإن أردت زوالها فهذا هو **الحسد**، وإن اشتهيت لنفسك مثلها فهذا هو الغبطة **والمنافسة**» [5].

- **المثال الرابع**: بيان أبي حيان (ت: 745) للفرق بين الإنذار والإعلام والإخبار: «الإنذار: الإعلام مع التخويف في مدة تسع التحفظ من المخوف، وإن لم تسع سمي إعلاماً وإشعاراً أو إخباراً» [6]

---

[1]- نفسه: 17/ 121-122.

[2]- التحرير والتنوير 106/6-107.

[3]- تأويلات أهل السنة: 24/1.

[4]- المحرر الوجيز: 66/1.

[5]- مفاتيح الغيب: 257/3.

[6]- البحر المحيط: 171/1.

والأمثلة على هذا المستوى كثيرة لا يسمح المقام بعرض المزيد منها.

3.3.2. تحرير كليات المصطلحات القرآنية

من أوجه خدمة المفسرين من السلف للمصطلحات القرآنية وضعهم لبعض الكليات والقواعد المتعلقة باستعمال القرآن الكريم لها، وهي مستفادة من استقراء لمواردها في الكتاب العزيز، وتدبر في دلالاتها، وقد جمعتُ بضعا من هذه الكليات مما أورده الطبري في تفسيره رواية عن عدد من التابعين أقدم نماذج منها:

- كل شيء في القرآن من زكى أو تزكّى فهو الإسلام[1].
- كل شيء في القرآن سلطان فهو حجة[2]
- كل شيء في القرآن السيئة فهو الشرك[3].
- كل ما ذكر الله في القرآن السياحة: هم الصائمون[4].
- كل ظن في القرآن يقين[5].
- كل فسق في القرآن فمعناه الكذب[6].

إن ورود هذه الكليات عند المفسرين الأوائل من التابعين يدل على معرفتهم **بعادة** القرآن في استعمال ألفاظه، وهي معرفة اكتسبوها من طول نظر وتدبر للقرآن الكريم، ومن معرفة عميقة باللغة التي نزل بها، أعانهم على ذلك قربهم من زمن النزول؛ وتلك أمور معينة ـــ دون شك ـــ على الفهم السليم لدلالات هذه الألفاظ.

4.3.2. تحديد المعاني المختلفة للمصطلح في سياقاته القرآنية

هذا النوع من الدرس قائم على ملاحظة المعاني المختلفة للمصطلح من خلال الاستعمال القرآني لها في سياقات مختلفة، وهو ما يشبه إلى حد ما ما قام به أصحاب الوجوه والنظائر، بل هو جهد متبادل بين المفسرين والدارسين للوجوه والنظائر، ومن الأمثلة على ذلك:

- **المثال الأول**: بيان الطبري لمعاني الصلاح في القرآن: «الصلاح قد يشتمل معاني كثيرة: منها الصلاح في استواء الخلق، ومنها الصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير»[7]، وبيانه لمعاني الإحصان: « قد بيّنا أن أن أحد معاني الإحصان: الإسلام، وأن الآخر منه التزويج، وأن الإحصان كلمة تشتمل على معان شتى»[8].

---

[1]- جامع البيان: 222/17.

[2]- نفسه 22/ 220

[3]- نفسه: 143/18 .

[4]- نفسه 12/ 13 .

[5]- نفسه 625/1.

[6]- نفسه: 255/9 .

[7]- نفسه: 622/10 .

[8]- جامع البيان: 597/6.

- **المثال الثاني**: بيان ابن عطية لمعاني الهدى «والهداية في اللغة الإرشاد، لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تؤملت رجعت إلى الإرشاد، فالهدى يجيء بمعنى **خلق الإيمان في القلب**، ومنه قوله تعالى: "أولئك على هدى من ربهم"[البقرة: 5] وقوله تعالى: "والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" [يونس: 25] وقوله تعالى: "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء"[القصص: 56] وقوله تعالى: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام" [الأنعام: 125] ... وقد جاء الهدى بمعنى **الدعاء**، من ذلك قوله تعالى: "ولكل قوم هاد" [الرعد: 7] أي داع وقوله تعالى: "وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم" [الشورى: 52] وهذا أيضا يبين فيه الإرشاد، لأنه ابتداء إرشاد، أجاب المدعو أو لم يجب، وقد جاء بمعنى **الإلهام**، من ذلك قوله تعالى: "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى"[طه: 5]. وهذا أيضا بين فيه معنى الإرشاد، وقد جاء الهدى بمعنى **البيان**، من ذلك قوله تعالى: "وأما ثمود فهديناهم" [فصلت: 17]» [1] .

- **المثال الثالث**: بيان الرازي لبعض معاني التقوى في عدد من المواضع: «واعلم أن حقيقة التقوى وإن كانت هي التي ذكرناها [وذلك بأن يكون المتقي **آتيا العبادات محترزا عن المحظورات**] إلا أنها قد جاءت في القرآن والغرض الأصلي منها: الإيمان تارة، والتوبة أخرى، والطاعة ثالثة، وترك المعصية رابعا، والإخلاص خامسا؛ أما **الإيمان** فقوله تعالى " وألزمهم كلمة التقوى" أي التوحيد "أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى" وفي الشعراء "قوم فرعون ألا يتقون" أي ألا يؤمنون وأما **التوبة** فقوله: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا" أي تابوا، وأما **الطاعة** فقوله في النحل "أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون" وفيه أيضا "أفغير الله تتقون" وفي المؤمنين "وأنا ربكم فاتقون" وأما **ترك المعصية** فقوله: "وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله" أي فلا تعصوه، وأما **الإخلاص** فقوله في الحج "فإنها من تقوى القلوب" أي من إخلاص القلوب، فكذا قوله "وإياي فاتقون"» [2].

- **المثال الرابع**: بيان ابن عادل لمعاني الظن في القرآن الكريم نقلا عن أبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت:430): « ورد" الظَّن "في القرآن بإزاء خمسة معان: الأول: بمعنى"**اليقين**" كهذه الآية، ومثله: "إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ" [الحاقة: 20]، ومثله: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُواْ اللَّهِ" [البقرة: 249]. الثاني: بمعنى"**الشَّك**" قال تعالى: "إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" [الجاثية: 32]. الثالث: بمعنى"**حسب**" قال تعالى: "إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ" [الانشقاق: 14] أي: حسب ألا يرجع، ومثله: "وَلَـكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ" [فصلت: 22]. الرابع: بمعنى"**الإنكار**" قال تعالى: "وَمَا خَلَقْنَا السماء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

[1]- المحرر الوجيز: 73/1.

[2]- مفاتيح الغيب: 23/2.

بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ" [ص: 27] أي: إنكارهم. والخامس: بمعنى"**الجَحْد**" قال تعالى: "وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ" [يونس: 60] أي: وما جَحْدُهم.. »[1]

إن هذا النوع من الدرس يقوم أساسا على تمييز الدلالات الجزئية للمصطلح في الاستعمالات المختلفة له في النص، وتلك خطوة مهمة في دراسة المصطلح القرآني، مبنية ــ حتما ــ على درس وتحليل لتلك الموارد وسياقاتها، وممهدة لما يأتي بعدها من استخلاص للدلالة العامة المستقاة من كل تلك الاستعمالات، ولذلك كانت جهود أصحاب الوجوه والنظائر، التي اعتنت بهذا الأمر، مكملة لغيرها من الجهود المهتمة بالتعريفات والحدود، وتلك المنصبة على التفسير والتحليل...

ومما يمكن إلحاقه بهذا النوع من الدرس والعناية بالمصطلح القرآني لدى بعض المفسرين: حصرهم لمختلف الألفاظ التي يستعملها القرآن الكريم للدلالة على معنى من المعاني في مجال دلالي معين، وهذا وإن لم يكن فيه درس وتحليل لهذه الألفاظ إلا أنه مفيد في حصر المصطلحات المنتمية إلى بعض المجالات المفهومية، وهو نوع من **التصنيف المفهومي لهذه المصطلحات**، من ذلك مثلا قول الرازي: «الألفاظ الواردة في القرآن القريبة من معنى الختم هي: الطبع والكنان والرين على القلب والوقر في الآذان والغشاوة في البصر»[2] ، ومثله قوله في موضع آخر: «... فإن كانت تلك الداعية داعية الكفر، فهي الخذلان والإزاغة والصد والختم والطبع والرين والقسوة والوقر والكنان، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن، وإن كانت تلك الداعية داعية الإيمان فهي: التوفيق والرشاد والهداية والتسديد والتثبيت والعصمة، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن»[3].

5.3.2. تحديد الأصل الدلالي للمصطلح

هذا النوع من الدرس استكمال للدرس اللغوي المعجمي للمصطلح، وهو يهتم تحديدا ببيان الأصول الدلالية للمصطلحات القرآنية، وهو ما يعين في الغالب على ملاحظة النطفة الدلالية التي تخلق منها المعنى الاصطلاحي، مع بيان العلائق بين ذلك الأصل وبين الدلالة الاصطلاحية التي صارت للفظ باستعمال القرآن الكريم له، ومن الأمثلة الموضحة لهذا الدرس:

- **المثال الأول**: قول الطبري في مفهوم التفنيد: «أصل التفنيد: الإفساد، وإذا كان كذلك فالضعف والهرم والكذب وذهاب العقل، وكل معاني الإفساد تدخل في التفنيد، لأن أصل ذلك كله الفساد، والفساد في الجسم: الهرم وذهاب العقل والضعف، وفي الفعل: الكذب واللوم بالباطل» [4].

---

[1]- اللباب في علوم الكتاب: 36/2.

[2]- مفاتيح الغيب: 2/57-58 .

[3]- نفسه: 7/ 193-194 .

[4]- جامع البيان: 341/13

- **المثال الثاني**: قوله مبينا أصل الحكمة: «الحكمة: العِلم بأحكام الله التي لا يُدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم، والمعرفة بها وما دلّ عليه ذلك من نظائره، **وهو عندي مأخوذ** من الحُكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل» [1].

- **المثال الثالث**: قول ابن الجوزي موضحا العلاقة بين الدلالة اللغوية والاصطلاحية للفظ الغيب: «وأصل الغيب: المكان المطمئن الذي يستتر فيه لتزوله عما حوله، فسمي كل مستتر: غيبا» [2].

- **المثال الرابع**: قول الرازي في مفهوم الدين: «أصل الدين في اللغة الجزاء، ثم الطاعة تسمى دينا **لأنها سبب الجزاء**»[3]

- **المثال الخامس**: بيان الطاهر بن عاشور لأصل التسبيح: « والتسبيح قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتتريهه ولذلك سمى ذكر الله تسبيحاً ، والصلاة سبحة ويطلق التسبيح على قول سبحان الله لأن ذلك القول من التتريه وقد ذكروا أن التسبيح مشتق من السبح وهو **الذهاب السريع في الماء** إذ قد توسع في معناه إذ أطلق مجازاً على مر النجوم في السماء قال تعالى: "وكل في فلك يسبحون" [يس: 40] وعلى **جري الفرس** قالوا فلعل التسبيح لوحظ فيه معنى سرعة المرور في عبادة الله تعالى، وأظهر منه أن يكون سبح بمعنى نَسب للسبح أي **البعد** وأريد البعد الاعتباري وهو الرفعة أي التتريه عن أحوال النقائص» [4].

6.3.2. حفظ الدلالة القرآنية من الإسقاط المصطلحي وتصحيح الفهوم الخاطئة لها

لعل أخطر ما يؤدي إلى سوء فهم مراد الله عز وجل من كلامه: سوء فهم ألفاظه ومصطلحاته، ومن مظاهر سوء الفهم لها إسقاط الدلالات المتأخرة الحادثة بعد التزول على الألفاظ الواردة في القرآن الكريم وتفسيرها بناء على ذلك، وهنا يكمن مدخل الخلل والزلل، وقد وعى المفسرون خطورة هذا الأمر، وخاصة من جاءوا في عصور متأخرة نسبيا، ومن عايشوا مظاهر للتشويه والتحريف الدلالي الذي لحق العديد من المفاهيم القرآنية، ومن أبرز من أكد على خطورة هذا الأمر في تراثنا: اثنان من الأعلام المجددين: شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ رشيد رضا.

أما ابن تيمية فقد أورد التحذير من الإسقاط المصطلحي في مقدمة التفسير حيث أرجع الاختلاف الحاصل في التفسير من جهة الاستدلال إلى سببين: أحدهما: حمل ألفاظ القرآن الكريم على معان مُعتَقَدة « دون

[1]- جامع البيان: 577/2

[2]- زاد المسير 24/1.

[3]- مفاتيح الغيب: 225/7

[4]- التحرير والتنوير405/1.

نظر إلى ما تستحقه ...من الدلالة والبيان» [1].؛ كما أكد في مواضع من كتاب الإيمان، مؤسسا لنظر متقدم للغة في بعدها التداولي، أن التعامل مع لغة القرآن ولغة النبي صلى الله عليه وسلم ــ مع ما حدث من تطور دلالي لها في الأزمنة المتعاقبة ــ يجب أن يراعى فيه فهم هذه اللغة في سياقها التداولي المعاصر للنزول، «ومن هنا غلط كثير من الناس، فإنهم قد تعودوا ما اعتادوه، إما من خطاب عامتهم وإما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ في معنى، فإذا سمعوه في القرآن والحديث ظنوا أنه مستعمل في ذلك المعنى، **فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم.. وعادتهم الحادثة**، وهذا مما دخل به الغلط على طوائف، بل الواجب أن يعرف **اللغة والعادة والعرف الذي نزل به القرآن** والسنة، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله لا بما حدث بعد ذلك» [2]. والمتأمل في هذا الكلام يجده داخلا في صلب النظر المصطلحي للغة عموما وللغة القرآن الكريم على وجه الخصوص، فليست العادة والعرف الذي نزل به القرآن سوى ذلك الاستعمال المطرد للألفاظ الذي أكسبها صفة المصطلحية، ومما يؤكد ذلك ويبينه كلام ابن تيمية بُعيد ذلك عن كيفية التعامل مع ألفاظ القرآن الكريم وفقا لهذا الحس المصطلحي، وهو قوله: «ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده وهي العادة المعروفة من كلامه» [3] ومعنى هذا الكلام أنه: لا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه، لأنه تبديل وتحريف [4] . وقد طبق ابن تيمية هذا النظر في دراسته لمفاهيم كثيرة **وقع الخطأ في فهمها وتفسيرها**، ومن ذلك مفاهيم: الإيمان والإسلام والإحسان والتأويل، والعقل والقلب والسنة والعمل والعلم، والشفاعة والحسنة والسيئة والشهادة، والكفر والنفاق والمعصية والفسوق والتولي والظلم وغيرها، وكان في كل ذلك مسترشدا بالاستعمال القرآني لهذه الألفاظ الذي يترجم عادة وعرفا وجب احترامهما.

لقد جاءت دراسة ابن تيمية لهذه المصطلحات وغيرها، في معرض مناقشاته لأقوال الطوائف المختلفة في هذه المفاهيم، في مجال علم الكلام والفلسفة، حيث ركز على تصحيح الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء في فهم ألفاظ ومصطلحات قرآنية، وجب تفسيرها وفقا للغة القرآن وعادته؛ لكنه ظل وفيا لهذا النهج في دراسة للعديد من المفاهيم القرآنية **في ما كتبه من تفسير** أيضا، وسأورد نموذجا من دراسته لبعض المصطلحات ــ في تفسيره لسورة النساء ــ ركز فيها على تصحيح بعض الفهوم لها مرتكزا على ملاحظة دوران اللفظ واستعماله في القرآن الكريم، وهو مصطلح "الاختيان":

---

[1]- مقدمة في أصول التفسير: ص52

[2]- الإيمان 95

[3]- الإيمان 104

[4]- نفسه

– فى تفسيره لقوله تعالى: «وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ **يَخْتَانُونَ** أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا« [النساء: 107] أشار في البداية إلى أن هذه الآية نظير قوله عز وجل في سورة البقرة: «عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ» [البقرة:187]، ثم عرض أقوال بعض المفسرين أن معنى «تخونون أنفسكم: **تظلمونها**» ثم علق على ذلك بقوله: « **وهذا القول فيه نظر**؛ فإن كل ذنب يذنبه الإنسان فقد ظلم فيه نفسه، سواء فعله سراً أو علانية. وإذا كان اختيان النفس هو ظلمها أو ارتكاب ما حرم عليها، كان كل مذنب مختاناً لنفسه، وإن جهر بالذنوب، وكان كفر الكافرين وقتالهم للأنبياء وللمؤمنين اختياناً لأنفسهم، وكذلك قطع الطريق والمحاربة، وكذلك الظلم الظاهر، وكان ما فعله قوم نوح وهود، وصالح وشعيب اختياناً لأنفسهم.

ومعلوم أن **هذا اللفظ لم يستعمل فى هذه المعاني كلها**، وإنما استعمل فى **خاص من الذنوب مما يفعل سراً**، وحتى قال ابن عباس في قوله «يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ«: عنى بذلك فعل عمر[1]«؛ ولتأكيد هذا المعنى تتبع ابن تيمية موارد اللفظ في القرآن الكريم مبينا أنه «حيث استعمل لا يستعمل إلا فيما خفي عن المخون، كالذي يخون أمانته، فيخون من ائتمنه إذا كان لا يشاهده، ولو شاهده لما خانه، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ« [الأنفال:27]، وقال تعالى: «وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً» [المائدة:13]، وقالت امرأة العزيز: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» [يوسف:52]، وقال تعالى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» [غافر: 19].

وبالرجوع إلى الآية محور التفسير: فليس المقصود بالخيانة السرقة، حسب ما جاء في بعض كتب التفسير، وإنما المقصود: «كتمان سرقة السارق، ورمى غيره بالسرقة، كما قال تعالى بعد ذلك: "يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ" [النساء: 108]، فكانوا خائنين للصاحب والرسول»[2].

أما الشيخ رشيد رضا فإنه، وعيا منه بما أصاب الأمة في عصره من أدواء نتيجة البعد عن القرآن الكريم علما وعملا، وانطلاقا من رؤيته الخاصة للتفسير وما يجب أن يكون عليه منهج التفسير، وفي سياق نقده للمفسرين؛ أشار أكثر من مرة إلى غلط المفسرين في تفسير ألفاظ القرآن الكريم **بمعان حادثة بعد النزول**، ووقف عند نماذج من الإسقاطات المصطلحية فسرت انطلاقا منها مصطلحات قرآنية بما صارت إليها دلالتها في مجالات علمية أصولية أو كلامية. نذكر منها بعض الأمثلة:

[1]– روى أنه شكا حاله إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله، إنى أردت أهلي الليلة، فقالت: إنها قد نامت، فظننتها لم تنم فواقعتها، فأخبرتنى أنها كانت قد نامت، قالوا: فأنزل الله فى عمر: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ« [البقرة: 187].

[2]– الفتاوى:234/14 .

المثال الأول: نقد تفسير مصطلح التأويل في آية آل عمران بالتفسير، حيث ذهب الكثير من المفسرين إلى بأن المقصود بالتأويل في الآية: التفسير، وهو ما لا يشهد له استعمال القرآن الكريم للفظ، ولذلك علق صاحب المنار على هذا التفسير بقوله: «إنما غلط المفسرون في تفسير التأويل في الآية لأنهم جعلوه بالمعنى الاصطلاحي، وإن تفسير كلمات القرآن بالمواصفات الاصطلاحية قد كان منشأ غلط يصعب حصره»[1].

- **المثال الثاني**: تصحيح مفهوم **الإحكام** حيث فسره البعض بما يقابل النسخ، «وهذا الحمل غير صحيح وإن كان المراد منه صحيحا، فإن هذا الاصطلاح ليس من أصل اللغة ولا من عرف القرآن، بل وضع بعد عصر نزوله»[2].

- **المثال الثالث**: قوله تعليقا على تفسير مفهوم **الاستنباط** في قوله عز وجل: «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا» [النساء: 82] بالمعنى المعروف عند الأصوليين: «هذا شاهد من أفصح الشواهد على ما بيناه قبل من سبب غلط المفسرين، وبعدهم عن فهم الكثير من آيات الكتاب المبين، بتفسيره **بالاصطلاحات المستحدثة**، فأهل الأصول والفقه اصطلحوا على معنى خاص لكلمة الاستنباط فلما ورد هذا اللفظ في هذه الآية حمل مثل الرازي على فطنته أن يخرج بها عن طريقها ويسير بها طريق آخر ذي شعاب كثير يضل فيها السائر حتى لا مطمع في رجوعه إلى الطريق السوي»[3] .

- **المثال الرابع**: مناقشته ورده لتفسير الزمخشري والرازي لمفهوم **الذنب** بالمعصية (في تفسير الآية 43 من سورة التوبة)، حيث اعتبره جمودا «مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاص في معنى الذنب وهو المعصية ... فالذنب في اللغة كل عمل يستتبع ضررا أو فوت منفعة أو مصلحة، مأخوذ من ذنب الدابة، **وليس مرادفا للمعصية بل أعم منها...**»[4].

- **المثال الخامس**: تصحيح مفهوم **الظلم** في تفسير البعض لقوله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: 40]، مؤكدا على ضرورة النظر في كل موارد اللفظ: «والقرآن يفسر بعضه بعضا ويؤيد بعضه بعضا، وما أخطأ كثير من العلماء في فهم كثير من الآيات إلا لذهولهم عن مقارنة الآيات المتناسبة بعضها ببعض واستبدالهم بذلك **تحكيم الاصطلاحات والقواعد التي وضعها علماء مذاهبهم وإرجاع الآيات إليها وحملها عليها**»[5].

---

[1]- تفسير المنار172/3: .

[2]- نفسه: 4/12: .

[3]- نفسه: 300/5 .

[4]- نفسه: 541/10 .

[5]- تفسير المنار: 107/5 .

المثال السادس: نقده لتفسير الرازي لمفهوم لفظ "**الإله**" في قوله عز وجل: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأعراف:138- 139] بالخالق المدبر، وقد رد صاحب المنار هذا الخطأ إلى «الغفلة عن مدلول ألفاظ القرآن في اللغة العربية واستعمالها بلوازم معناها العرفية كلفظ "الإله" فإن معناه في اللغة المعبود مطلقا لا الخالق ولا المدبر لأمر العالم كله ولا بعضه، ولم يكن أحد من العرب الذين سموا أصنامهم وغيرها من معبوداتهم آلهة يعتقد أن اللات أو العزى أو هبلا خلق شيئا من العالم أو يدبر أمرا من أموره، وإنما تدبير أمور العالم يدخل في معنى لفظ الرب. والشواهد على هذا في القرآن كثيرة ناطقة بأنهم كانوا يعتقدون ويقولون إن خالق السماوات والأرض ومدبر أمورهما هو الله تعالى وإن آلهتهم ليس لها من أمر الخلق والتدبير شيء، وإن شركهم لأجل التقرب إليه تعالى وابتغاء الشفاعة عنده بعبادة ما عبدوه»[1]. ومنشأ هذا الغلط عند الرازي يكمن في تأثره ب«الاصطلاحات الحادثة، وغفلته عن معنى الإله في أصل اللغة وعن آيات القرآن الكثيرة فيه». وهذا الكلام في حقيقته يكشف امتلاك صاحب المنار لأدوات الدرس المصطلحي وشروطه التي لخصها قوله هذا في ثلاثة شروط: **اعتبار الدلالة اللغوية للمصطلح، واستقراء الآيات القرآنية التي يرد فيها، والبعد عن الاصطلاحات الحادثة**، وهذه الشروط حين تخرم تكون السبب الأساس ــ في نظره ــ في ما تحويه كتب التفسير من أخطاء، وهذا لعمري وعي متقدم بخطورة الإسقاط المصطلحي، كما أنه نظر جديد في نقد التراث التفسيري وتقويمه انطلاقا من رؤية مصطلحية، تميز بها صاحب المنار.

---

[1]- ينظر: 113/9 .

3. جهود معاصرة لخدمة المصطلح القرآني

إن جهود العلماء في خدمة المصطلح القرآني، لم تتوقف عند حدود ما أوردناه من نماذج و لم تقتصر على ما ضربناه من أمثلة، بل هي جهود مستمرة ومتجددة، حاولت ــ اليوم ــ تطوير صور الاهتمام بالمصطلح القرآني وأشكاله، وتنويع زوايا النظر إليه، وهو أمر فرضه ما يعرفه عالمنا اليوم من تطور في مجال انتشار المعارف وتداول المعلومات، من جهة، وحاجة الدراسات القرآنية عموما إلى التطوير والتجديد، من جهة ثانية.

ولعل من أبرز أشكال الاهتمام بالمصطلح القرآني اليوم، بالإضافة إلى **الدراسات النظرية والتطبيقية**؛ الانخراطُ في **مشاريع علمية** تُستثمر فيها الطاقات البشرية والإمكانات التقنية المعاصرة، والاستفادةُ من **المؤسسات البحثية والمراكز العلمية** ذات الصلة بهذا المجال، بما تمتلكه من طرق جديدة في التخطيط والتدبير والتطبيق.

انطلاقا من هذا الوصف الإجمالي سأحاول الوقوف، في عجالة، على تجارب ونماذج للاعتناء بالمصطلح القرآني، في العصر الحاضر مع تقديم مقترحات لمزيد من التطوير والتجديد.

1.3. الدراسات والأبحاث

يجب التنويه بداية إلى أن اهتمام هذه الدراسات ــ في جملتها ــ بالمصطلح القرآني: سواء بوضع مناهج لدراسته، أو بدراسة نماذج منه؛ يأتي في سياق تجديد مناهج التفسير، أو اقتراح مداخل جديدة له تتوسل بالمفردة أو المصطلح باعتباره محور النص ومفتاح فهمه وبيانه.

1.1.3 دراسات في *التفسير الموضوعي*

تعتبر مباحث التفسير الموضوعي من أهم الجهود المهتمة بدراسة المصطلح القرآني في العصر الراهن، فالتفسير الموضوعي يتوسل في إحدى صوره بالكلمة القرآنية لتفسير القرآن الكريم، حيث يتتبع المفسر الكلمة من « كلمات القرآن الكريم، ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها، يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها»[1].

---

[1] مباحث في التفسير الموضوعي: 23.

ومن أقدم الدراسات التي وضعت أسس منهج التفسير الموضوعي، باعتباره وجها من أوجه التجديد في التفسير، دراسة الدكتورة عائشة بنت الشاطئ الموسومة ب "**منهج الدراسة القرآنية**" ضمن كتابها "مقدمة في المنهج"، وهي في الحقيقة نموذج يترجم الدعوة التي أطلقها الشيخ أمين الخولي في كتابه "مناهج تجديد في اللغة والبلاغة والتفسير"، والدراسة في عمومها مبنية على **محورية اللفظ القرآني**، وأهمية مميزاته البيانية ومخزوناته الدلالية، في فهم الخطاب القرآني.

وقد حددت بنت الشاطئ مراحل هذه الدراسة في ثلاث خطوات[1]: الأولى ينظر فيها إلى مقام النص، من حيث مكان النزول وزمن النزول وسبب النزول، والثانية ترتكز أساسا على خدمة النص في جانبه اللغوي، خاصة ما يتعلق **بالألفاظ والكلمات**، حيث يتم استقراء اللفظ في مختلف موارده في القرآن الكريم، ثم نتجه بعد ذلك إلى فهم اللفظ في اللغة العربية، بقصد الوصول إلى "الدلالة الأصلية" للفظ المدروس. أما المرحلة الثالثة، فتخصصها لما سمته "الدراسة الموضوعية"، وفيها يتم استقراء كل ما يتعلق بالموضوع المدروس في القرآن الكريم من آيات، ترتب حسب نزولها، ويتدبر في سياقاتها المقامية، مع الاستئناس بالصحيح من الحديث النبوي والسيرة وأقوال الصحابة والمفسرين، والفقهاء واللغويين والبلاغيين، على أن "يكون للقرآن القول الفصل"، وعليه تعرض أقوال المفسرين وغيرهم، "ذاكرين أن القرآن الكريم هو الأصل والمرجع، وأن الحديث الشريف شرح له وتفصيل".

لقد شكلت هذه الدراسة التي تبنتها المدرسة البيانية الأدبية في التفسير منطلقا للعديد من الدراسات[2] النظرية والتطبيقية التي اعتنت بالمصطلح القرآني، وخاصة تلك التي اعتمدت منهج الانطلاق من **الكلمة القرآنية** في الدراسة[3].

ثم سرعان ما تطورت أشكالها وتعددت وبرز منها ما سمي **بالدراسة الموضوعية** لعدد من المفاهيم والمصطلحات، أنجز بعضها في سياق البحوث الأكاديمية، وبعضها خارجه. لكن الملاحظ على هذه الدراسات أنها لم تتقيد بمنهج علمي خاص **نابع من الخاصية "المصطلحية" لهذا الألفاظ**؛ فطبع بعضَها الانتقاء في دراسة نصوص المصطلحات، وبعضها كان أقرب إلى "الخواطر" منه إلى الدراسة العلمية الدقيقة؛ لكنها مع ذلك لم تخل من فائدة لدارسي المصطلح القرآني، خاصة حين تدقق في بعض الجوانب المهمة في دراسة المصطلح كالعلاقات التي تربطه بغيره من المصطلحات.

---

[1] – ينظر: مقدمة في المنهج: 135-137.

[2] – من هذه الدراسات ما هو نظري ك"مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" لمحمد باقر الصدر، و"مباحث في التفسير الموضوعي" للدكتور مصطفى مسلم... ومنها ما هو تطبيقي، يتخذ بعضه صفة الدراسة الموضوعية لبعض المصطلحات وهو كثير...

[3] – ومن أوائل هذه الدراسات:كتاب: (القرآن وقضايا الإنسان) لبنت الشاطئ، وتجدر الإشارة إلى دراسة متقدمة عنها ورائدة في هذا الباب وهي دراسة الشيخ أبي الأعلى المودودي: (المصطلحات الأربعة في القرآن).

2.1.3. دراسات مصطلحية

عرف العقد الأخير من القرن الماضي — في المغرب ـــ ظهور عدد من الدراسات المهتمة بالمصطلحات والمفاهيم القرآنية، انبثقت فكرتها من وحدة للتكوين والبحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، تحت إشراف أستاذ الجيل الرائد في الدراسات المصطلحية الدكتور الشاهد البوشيخي حفظه الله، وبغض النظر عن عدد الأبحاث التي أنجزت في دراسة عدد من المصطلحات القرآنية[1]، فإن أهم ما قدمه هذا المشروع من خدمة للمصطلح القرآني، يمكن إجماله في أمرين:

– الأول: **يتعلق بصياغة منهج علمي لدراسة هذا المصطلح**، وهو منهج روعيت فيه كل الضوابط المعينة على تحقيق المفاهيم والمصطلحات: تعريفا لها، ودراسة لما يكتنفها من أوصاف وما يتعلق بها من مفاهيم، وما يتفرع عنها من اشتقاقات وما يرتبط بها من قضايا **في كل النصوص التي ترد فيها**، مع مراعاة خصوصية استعمالها في اللغة وفي السياق القرآني، وقد نشرت دراسات للأستاذ الشاهد البوشيخي توضح أركان المنهج وخطواته[2]، كما تم عرض المنهج مع بعض التطوير والتفصيل في مقدمات بعض الأطاريح الجامعية التي نوقشت في مجال المصطلح[3]...

– الأمر الثاني: **يتعلق بدراسة مجموعة من المفاهيم والمصطلحات المحورية في القرآن الكريم**، ومنها مصطلحات كان لها امتداد خارج النص القرآني، واحتيج إلى تمييز دلالتها القرآنية عن دلالات علمية حادثة: أصولية أو كلامية أو صوفية: كمصطلح التأويل والأمر والبيان والذكر والعبادة، ومنها مصطلحات تنتمي إلى مختلف المجالات المفهومية في القرآن الكريم، كالعلم والقلب والتقوى والهدى والاتباع، والنفاق والفسوق والعدوان والفساد والظلم، والغيب والكتاب والترتيل والأمة والإنسان والسلام والنصر والنعمة.... ورغم أن هذه الدراسات تتفاوت مستوياتها من حيث الفائدة العلمية والدقة المنهجية قوة وضعفا، فإنها فتحت مجالا للباحثين المعاصرين لخدمة القرآن الكريم من هذه الزاوية المصطلحية، وخلصت في كثير من الأحيان إلى نتائج علمية مهمة في تحرير بعض المفاهيم وضبطها وتصحيح ما علق بها من فهوم خاطئة.

3.1.3. دراسات دلالية

---

[1] – عدد الأبحاث المسجلة للدكتوراه يقارب الستين، جلها نوقش وأجيز، وبعضها طبع ونشر.

[2] – حرر الدكتور البوشيخي معالم هذا المنهج في صورته العامة في مقدمات رسائله الجامعية: (مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبين للجاحظ) و(مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، قضايا ونماذج)، ثم فصل القول فيها في سلسلة دراسات مصطلحية، مثل: (نظرات في المنهج والمصطلح)، و (القرآن الكريم والدراسة المصطلحية).

[3] – منها أطروحة الدكتور فريد الأنصاري في (المصطلح الأصولي عند الشاطبي)، وأطروحة صاحبة هذا البحث في (مفهوم التأويل في القرآن والحديث)، وأطروحة الدكتور الطيب البوهالي: (مفهوم السلام في القرآن والحديث) وغيرها.

ظهر الاهتمام بعلم الدلالة مسلكا لدراسة النص القرآني وتفسيره، عند الكثير من الباحثين المعاصرين، مع عناية خاصة بالتطور الدلالي الحاصل **في ألفاظ القرآن الكريم بسبب الاستعمالات الجديدة لها فيه**، وهو أمر يدخل في صلب موضوع المصطلح القرآني، ويسهم في تطوير منهج دراسته، لذلك وجب الوقوف عند بعض نماذج هذه الدراسات بشيء من التفصيل.

من هذه الدراسات: دراسة للباحث الياباني المسلم توشيهيكو إيزوتسو[1] (1914م-1993م) التي أصدرها عام 1964م بعنوان: «بين الله والإنسان في القرآن: دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم»[2].

وقد عمل الباحث على تطبيق منهج التحليل الدلالي، الذي يرصد "دلالات الألفاظ وتطورها"[3]، على المعجم اللغوي القرآني. وما يميز هذا المنهج ويجعله مفيدا في دراسة المصطلح القرآني أمران:

- أولهما: انطلاقه في **التصور** من قاعدة أساس تحدد كيفية «استخلاص الإطار المفهومي الأساسي للقرآن»[4]، وهي: ضرورة فهم مفاهيم القرآن ومصطلحاته « من دون أي تصور قبلي» أي دون اعتبار للفكر والفهوم التي «طورها وأحكمها المفكرون المسلمون في الأزمنة التي **أعقبت نزول القرآن**(...) علينا أن نحاول فهم بنية تصور العالم **في القرآن في صورته الأصلية، أي كما قرأه وفهمه صحابة النبي وأتباعه المباشرون**»[5]. وهذا المنطلق يساعد على بلورة منهج سليم للتعامل مع ذلك الإطار المفهومي الكلي للقرآن الكريم:

- ثانيهما: انطلاقه في **الدراسة** مما سماه النظام المفهومي[6] للقرآن وهو يتكون من مجموعة من الحقول الدلالية، وداخل الحقل الدلالي توجد الكلمات المفتاحية، وضمنها توجد الكلمات الصميمية، والكل يتمظهر من خلال شبكة من العلاقات المفهومية التي تشكل التضادات المفهومية معظمها. ويبدو من هذا أن مفهوم "الكلمة المفتاح" أو"الكلمة المركز" مفهوم محوري في منهج الدرس الدلالي، لأنها مفتاح هذا الدرس إلى "المنظومة الكلية للمفهومات القرآنية" وهي منظومة يرى إيزوتسو، ويبرهن على طول الكتاب أنها مؤسسة على نمط خاص من الفكر القرآني، مختلفة جذريا عن المنظومات غير القرآنية إسلامية كانت أم غير إسلامية.

---

[1] شغل منصب أستاذ في معهد الدّراسات الثّقافيّة واللغويّة من جامعة كِيُو ، في طوكيو. وعمل أستاذًا زائرًا في معهد الدّراسات الإسلاميّة في جامعة مكجل في كندا، درّس فيها علم الكلام والفلسفة عند المسلمين. وكتب دراساته باليابانية والإنكليزية، وكان على معرفة بالعربية.

[2] سنة 2007 صدرت ترجمتان للكتاب إلى اللغة العربية: الأولى: بترجمة عيسى العاكوب بدار الملتقى بحلب، والثانية: بترجمة هلال محمد الجهاد. في بيروت عن المنظمة العربية للترجمة، وله دراسة في نفس المجال بعنوان: المفهومات الأخلاقية الدينية في القرآن، وصدرت مؤخرا ترجمة كتابه: مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي.

[3] نفس المصدر، 29

[4] الله والإنسان، 112

[5] نفسه: 112، وينظر ما قاله في «المفهومات الأخلاقية الدينية في القرآن» ص: 63 عن كتب التفسير وأنه منهجيا يحظر عليه التعويل عليها «ويمكن أن تستخدم في الأعم الأغلب مساعدات قيمة، وعلينا أن لا ننسى أنه قد تبين أنها مضللة أكثر منها كاشفة، إلا إذا كنا حذرين جدا في الإفادة من البنية التي تقدمها»

[6] الله والإنسان، 60

وقد طبق الباحث هذا النظر في دراسة مجموعة من المفاهيم والمصطلحات المفتاحية: لفظ الجلالة" **الله**" والإنسان، والإسلام والطاعة والدين، والجاهلية والاستغناء والطغيان والاستكبار والعمى والحلم، والأمة.... وبعض التضادات والتقابلات المفهومية «كالغيب والشهادة والدنيا والآخرة، والشكر والكفر، والوعد والوعيد».... وقد كان دوما يؤكد أن هذه الدراسة من شأنها أن تكشف عن الرؤية الكونية للقرآن الكريم التي ضمنها مصطلحاته ومفاهيمه، ولذلك كان تركيزه على المصطلحات التي اعتبرها الأكثر أهمية في تحديد الرؤية القرآنية للعالم، وفي مقدمتها لفظ الجلالة "**الله**" الذي يصل المؤلف بخصوصه إلى استنتاج مهم وهو أنه المفهوم الذي يحكم كل المفاهيم في القرآن من عل «**ويترك تأثيرا عميقا في البنية الدلالية للكلمات المفتاحية جميعا**»[1] بحيث لا يوجد في المنظومة القرآنية حقل دلالي غير مرتبط به **!**.

لقد كان لدراسة هذا الباحث، ولذيوع الدراسات المصطلحية السالفة الذكر، الأثر الكبير في توجيه مجموعة من الباحثين المعاصرين المهتمين بسبل تطوير مناهج الدراسات القرآنية، إلى الاهتمام **بالمصطلحات والمفاهيم القرآنية** مما أنتج مجموعة من الدراسات نحت أغلبها منحى التنظير لمناهج جديدة لدراسة النص القرآني وتفسيره انطلاقا من المفردات والمصطلحات، نذكر من هذه الدراسات:

- دراسة بعنوان «**المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية**» صدرت مؤخرا للباحث عبد الرحمن حللي[2]، وهي الدراسة التي تصدرت سلسلة " المفهومات القرآنية" التي يروم الباحث ـ بمعية مجموعة من المتخصصين في الدراسات المفهومية القرآنية ـ إصدارها سعيا إلى إثراء المعارف القرآنية، بوضع مدخل منهجي يكشف عن أفق هذا اللون من الدرس القرآني، ويجسد هذا الطموح بنماذج تطبيقية وعملية لدراسة المفهومات القرآنية كنموذج للتدبر في محكم القرآن وتفصيل آياته، والمتجلي بوضوح في ضبط المفهومات الكلية المعبَّر بها عن تكامل المعنى القرآني في أماكن ورودها التفصيلية، وستكون هذه السلسلة خطاً يشتمل على نماذج من الدراسات المفهومية التي تنضبط بالمحددات المنهجية التي يرسمها المدخل لدراسة هذه المفهومات [3] وهي محددات يوجزها الباحث في خلاصة دراسته:

أولاً- النظر في مدلول الكلمة قبل عصر النزول، من خلال مصادر الشعر الجاهلي وكتب اللغة، أو أي مصدر يمكن أن يسهم في ذلك، وهذا الجانب ليس بمتيسر دائماً نظراً لقلة المصادر التي يمكن أن تسعف به.

ثانياً- النظر في كتب اللغة والمعاجم، للوقوف على أصل الكلمة في الوضع والاستعمال، وجذر الكلمة والاشتقاقات، وما يؤول إليه الدرس اللغوي من معنى يرتبط بهذا الجذر لاسيما اشتقاقاته المستعملة في القرآن، مع محاولة التحقيب التاريخي لتطور المعنى اللغوي عبر التاريخ.

---

[1] ينظر عرض الكتاب.

[2] صدرت عن دار الملتقى ودار الريادة بدمشق ط.1، 2011.

[3]- المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، من مقدمة الكتاب بتصرف.

ثالثاً- الجمع الإحصائي مع سبر وتقسيم لأماكن ورود المفردة في القرآن، يرافقه رصد ما هو مكي وما هو مدني، وما يمكن لحظه من قرائن استعملت مع كل لفظ في كل سياق، مع مراعاة طريقة استعمالات الاشتقاقات والمقارنة بينها، وملاحظة اختلاف الاستعمال القرآني للمفردة بين المستوى اللغوي والمستوى المفهومي والمستوى الاصطلاحي.

رابعاً – النظر في فهم المفسرين للمفردة من خلال المصادر المختلفة: «كتب الوجوه والنظائر، وكتب غريب القرآن ومعانيه، وكتب التفسير»، وقد يقتضي بعض المفهومات تتبع الاستعمال العلمي للمفهوم القرآني عبر الكتب العلمية المختصة التي استعملته.

خامساً- النظر في استعمال المفهوم في نصوص السنة إن اقتضى المفهوم ذلك، لاسيما تلك التي تتصل بفهم النص القرآني.

سادساً-المقارنة بين مختلف هذه الأنساق التي تم المرور بها، باستحضار كل مرحلة في التي تليها.

و لم يفت الباحث أن يشير إلى **الجهود التي قدمها الباحثون المغاربة** في هذا الباب ـ مما سبق ذكره ضمن الدراسات المصطلحية ـ وهي تشترك في منهجيتها [حسب قوله] مع قسم كبير من الخطوات التي أشار إليها.

2.3. المشاريع العلمية

من الصعب الحديث عن مشاريع علمية تستهدف أساسا خدمة المصطلح القرآني، وذلك لأسباب قد تعود إلى قلة الاهتمام بالمشاريع العلمية عموما نظرا لضعف الوعي بجدواها وقيمتها العلمية والحضارية، وقد تعود إلى قلة الإمكانات المعينة على تحقيق هذه المشاريع، وهذه الإمكانات بالنسبة للمصطلح القرآني تتجلى بوضوح في دقة هذا التخصص: فالمهتمون به قلة والمتخصصون فيه الدارسون له أقل، والحاملون لمشروع علمي يتعلق به أقل بكثير.

وفي ظل هذا الوضع، وبحسب ما تم الاطلاع عليه من المشاريع العلمية المهتمة بالمصطلح القرآني، أجدني مضطرة إلى شيء من الحديث عن النفس، بدافع التعريف بهذه الجهود؛ واعتبار مشروع **المعجم التاريخي للمصطلحات القرآنية المعرفة**، الذي سهر معهد الدراسات المصطلحية على إطلاقه، مشروعا رائدا في هذا الباب[1]، وهو جزء من المشروع الأم: **المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية المعرفة** الذي أعلن عنه ـ بعد مراحل من اختمار فكرته لدى صاحبه الدكتور الشاهد البوشيخي ـ في نهاية الثمانينات من القرن الماضي، وبدأ العمل فيه خلال النصف الأخير من العقد الأخير من القرن الماضي.

[1]- ينظر "مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية" و"نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية المعرفة " للدكتور الشاهد البوشيخي.

يروم المشروع إنجاز معجم يتضمن الشروح والتعريفات التي شرحت بها مصطلحات القرآن الكريم في كتب التفسير في مختلف الأعصار والأمصار، ترتب فيه الألفاظ ترتيبا ألفبائيا والتعريفات والشروح ترتيبا تاريخيا حسب وفيات المفسرين؛ مما يمكن الباحثين ــ الدارسين للمصطلحات القرآنية بصفة خاصة ــ من الاستفادة من جهود المفسرين على مر العصور في تعريف هذه المصطلحات، مع ما يسمح به النسق التاريخي من ملاحظة التطور الحاصل في هذه التعريفات؛ هذا فضلا عن كونه يمثل أرضية للدرس العميق لتطور التفسير، والنقد العلمي لما شابه من تعثرات.

وبعد إخراج نموذج من المشروع يتعلق بالمصطلحات المعرفة في تفسير الطبري[1] ، يتم الآن الإعداد لإنجاز الباقي عبر برنامج حاسوبي، تحت إشراف مؤسسة البحوث والدراسات العلمية.

3.3. المراكز والمؤسسات العلمية

إن الوجه الآخر لأي مشروع علمي، والمحرك الأساس له هو **المؤسسة**: باعتبارها الهيكل المناسب اليوم لتنظيم المشاريع العلمية، تخطيطا، وتدبيرا ومتابعة، لذلك سيكون من باب اللغو الحديث عن المشاريع العلمية الحاملة لهم البحث في المصطلح القرآني بكل أشكاله، في غياب مؤسسات راعية ومنظمة لهذه الجهود.

وقد ألمحنا في الحديث عن المشاريع العلمية إلى معهد الدراسات المصطلحية ومؤسسة البحوث والدراسات العلمية، وهما من المؤسسات العاملة في مجال البحث المصطلحي ــ في المغرب ــ كل حسب وضعه وتخصصه:

فمعهد الدراسات المصطلحية الذي عرف النور خلال العقد الأخير من القرن الماضي (28 ماي 1993م)، بإدارة أستاذنا الشاهد البوشيخي ومعه ثلة من الباحثين في الدراسات المصطلحية في مختلف التخصصات، جعل أهدافه تتركز في العناية بكل ما يؤدي إلى تطوير البحث العلمي في المصطلح، **بما في ذلك المصطلح القرآني**، ومن أهم ما قدمه المعهد في هذا الباب:

- سهره على بيان منهج الدرس المصطلحي للقرآن الكريم، وتدريب الباحثين عليه عن طريق دورات **تدريبية** وورش تطبيقية، **ومدارسات** علمية، إلى جانب عنايته **بنشر الدراسات** النظرية والتطبيقية التي تبين الفكرة وتوضح السبيل وتقرب المنهج.

- عنايته بتجميع جهود الباحثين في مفاهيم القرآن الكريم في المغرب، عبر الملتقى الذي أنشأه لهذا الغرض سنة 2007م وهو: (ملتقى الباحثين في القرآن الكريم ومفاهيمه).

---

[1]- أنجزته كاتبة هذا البحث ونشر سنة 2005 م بعنوان "المعجم التاريخي للمصطلحات القرآنية المعرفة في تفسير الطبري".

أما مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع)، فقد اعتبرت **مسألة المصطلح** ، بما في ذلك المصطلح القرآني، ثالث الأثافي في مشروعها العلمي بالإضافة إلى مسألة المنهج ومسألة النص، هذا فضلا عن اعتمادها ــ ضمن الوسائل ــ على **نشر الدراسات العلمية**[1] ، وتنظيم المؤتمرات والندوات العلمية الخادمة لهذا المجال، ومنها هذا المؤتمر المبارك الذي يسعى إلى خلق تواصل بين الباحثين المختصين في القرآن الكريم، ومنهم أولئك الذي يمموا وجوههم شطر المصطلح القرآني، وتجميع جهودهم وتطويرها وتنظيمها، ولو لم يكن للمؤسسة من إنجاز سوى **المعجم التاريخي لتفسير القرآن الكريم**، والإعداد **لمشروع المعجم التاريخي للألفاظ القرآنية المشروحة**، لكفاها خدمة للمصطلح القرآني ولأهله...

خاتمة: آفاق خدمة المصطلح القرآني

بعد هذا العرض الموجز لبعض أوجه العناية بالمصطلح القرآني قديما وحديثا، يحسن بعد التنويه بها، التطلع إلى مزيد من الجهد، في كل الأشكال السالفة الذكر:

فعلى مستوى التأصيل الأصولي واللغوي: نحتاج، بعد تجميع جهود القدماء المتناثرة في هذا الباب، إلى تطويرها بتنقيتها من شوائب الجدل الكلامي وظلال المذهبية الضيقة، ثم عرضها عرضا نظريا نسقيا يربط بين أجزاء هذه الجهود ويشد عضد بعضها ببعض، حتى تصير **نظرية متكاملة في المصطلح القرآني**.

وعلى مستوى الدراسة والتحليل، نتطلع إلى اعتبار الدرس المصطلحي لألفاظ القرآن الكريم مدخلا للتفسير ومفتاحا لفهم دلالات آيات الكتاب العزيز، ومن ثم نحتاج إلى مزيد من الدرس والتحليل لمصطلحات القرآن الكريم، يجمع بين مستويين من الدرس:

مستوى أفقي: يسير في اتجاه المسح التاريخي والآني لما أنجز من دراسات نظرية أو تطبيقية لمصطلحات القرآن الكريم، أو متعلقة بها نوعا من التعلق، وذلك في خطوة أولى لاكتشاف الموجود.

مستوى عمودي: يسير في ثلاثة مسارات:

1. النظر في التراث الموجود تحليلا وتعليلا ونقدا، من أجل استكمال البناء وسد الثلم.
2. الحفر في القضايا العلمية المتعلقة بالمصطلح القرآني، وعلى رأسها قضية المنهج، وما يلزمه من أصول وقواعد تحكم تطبيقه، وما يحتاجه من تكييف مع قواعد التفسير، لتكون مرجعا لهذا التأصيل والتقعيد.
3. استكمال مسيرة الدرس لكل المصطلحات القرآنية المشكلة للنسق المفهومي القرآني، وجمع نتائج هذه الدراسات المتمثلة أساسا في التعريفات الاصطلاحية لهذه المصطلحات في "**المعجم المفهومي لألفاظ القرآن الكريم**".

[1] – مما نشرته المؤسسة مؤخرا: مفهوم الأمة في القرآن والحديث، لعبد الكبير حميدي، ومفهوم السلام في القرآن والحديث للطيب البوهالي".

كل هذه الآفاق والتوقعات تحتاج إلى جهود أمة لا جهود أفراد، لذلك فإن مطلبا ملحا يجب أن يتصدر كل ما ذكر ــ يتعلق **بالمشاريع العلمية والمراكز والمؤسسات** ــ وهو: توسيع التجارب الموجودة وتعميمها في كل أرجاء العالم الإسلامي، والأهم من ذلك التنسيق بينها ربحا للوقت والجهد.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

المصادر والمراجع

– أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية.

– البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1 1993.

– البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، مراجعة عمر سليمان الأشقر، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، 1982م.

– البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط: 1972م.

– بين الله والإنسان في القرآن، دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: عيسى العاكوب، دار الملتقى، حلب، ط1: 2007م

– تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط3، 1973م

– تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي، تحقيق فاطمة يوسف الخمي، مؤسسة الرسالة، ط 1،2004م

– التحرير والتنوير، الشيخ الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، (د.ت).

– التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط 1، 1995م

– تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، للشيخ محمد عبده، تأليف الشيخ رشيد رضا، دار المنار، ط: 1367هـ .

– جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط 1، 2001م

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1 2006م

- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط2 1984م

- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، المكتبة السلفية، القاهرة، 1910م.

- كتاب الإيمان، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، ط 1، 1983م

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري،تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، ط 1 1998م

- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط: 1998.

- مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط1، 1989.

- مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد بن القاسم وابنه، مؤسسة قرطبة، 1969

- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1 /2001.

- المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، عبد الرحمن حللي حلب: دار الملتقى، دمشق: دار الريادة ط.1، 2011.

- مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية، الدكتور الشاهد البوشيخي، سلسلة دراسات مصطلحية، مطبعة أنفوبرنت، فاس، ط: 3، 2004م

- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي ، دار الفكر ط 1، 1981م

- مفردات القرآن، الإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق وشرح: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2002م.

- المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، تح محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، د.

- المفهومات الأخلاقية الدينية في القرآن، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: عيسى العاكوب، دار الملتقى، حلب، ط1: 2008م

- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، تحقيق: فريال علوان، دار الفكر اللبناني، ط1، 1992

مقدمة في المنهج، عائشة عبد الرحمن، معهد البحوث والدراسات الأدبية، 1971.

- نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية المعرفة" للدكتور الشاهد البوشيخي، سلسلة دراسات مصطلحية، مطبعة أنفوبرنت، فاس ط 2، 2009م.

- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم عاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1984م.

- الوجوه والنظائر، لمقاتل بن سليمان، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلميــة، بــيروت ط: 2008م.